الكوربه

صافي صافي

رواية

الروايات المنشورة

1. الحاج إسماعيل، اتحاد الكتاب الفلسطينيين، القدس، 1990م
2. الحلم المسروق، دار الكاتب، القدس، 1992م
3. الصعود ثانية، دار الكاتب، القدس، 1994م
4. اليسيرة، اتحاد الكتاب الفلسطينيين، القدس، 1996م
5. شهاب، اتحاد الكتاب الفلسطينيين، القدس، 2001م

صافي صافي

الـــكوربة

رواية

Published by
The Ogarit Cultural Center
Ramallah - Palestine - 2003
Telefax: +972-2-2967027
E-mail: ogarit@palnet.com

Copyright © Ogarit
All Rights Reserved

Published under auspices of NORAD
No. 066-2004

صافي صافي

الكوربة

رواية

منشورات مركز أوغاريت الثقافي للنشر والترجمة
رام الله - فلسطين
تلفاكس: ٠٢-٢٩٦٧٠٢٧-٠٢-٩٧٢+
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الاولى - ٢٠٠٤

الإشراف الفني:
VISION - Design House

هذا الكتاب ليس تأريخاً لأشخاص أو لأماكن أو لأحداث محددة،
هذا عمل أدبي فني مهما تشابهت الأشكال والمواقع والأسماء.

I

لم يلق المعلم علينا تحية الصباح. لم يُعرّف نفسه إلى طلبته. لم يطلب إلينا أن نذكر أسماءنا كما يحدث عادة. وقف أمام الصف. تطلع في كل منا. دقق النظر في كل واحد كأنه يقصده دون أن يكلمه. صمت طويلاً، خلنا ذلك ساعات. كنا ننتظر أن يقول شيئاً، ولم يقل. ساد صمت رهيب. ظن الطلبة أنه بهذه الطريقة يحاول فرض سيطرته، وخشوا أن يعاقبهم لو أخطأ أحدهم. «عبد الجليل»، هو معلم مادة التاريخ منذ ما يزيد عن عشرين عاماً، طويل البنية، عريض المنكبين، أجعد الشعر، يغطي عينيه بنظارة. أعاد التدقيق في الطلبة واحداً واحداً. تطلع في سقف غرفة الصف، أوشك أن يقول شيئاً ولكنه تراجع في اللحظة الأخيرة. أدار نظره نحو جدران الغرفة الجانبية، استغرق ذلك وقتاً، ظننته يحاول أن يستلهم فكرة ما، لكنه جال بنظره أرض الغرفة، وكأنه يعد بلاطها، بدا مثل رجل خجول من نفسه، لا يقوى على التطلع في الآخرين، يحاول ألا تتلاقى نظرات عينيه مع نظراتنا المصوبة نحوه بتركيز يزداد كلما مر الزمن. قطع علينا تفكيرنا فيما يعتمل في نفسه، مثلما فعل قبل لحظات، مشى نحو النافذة الوحيدة في الغرفة المطلة على الشرق، وراح يراقب المارة في الشارع: أصحاب المحال التجارية وهم يتوجهون لفتح محالهم، وموظفين يتوجهون إلى أماكن عملهم، وبعض الطلبة الذين تأخروا قليلاً عن مدارسهم، وبعض الصبية الذين يحملون سبحاً وتحفاً صغيرة على صواني كرتونية أو خشبية ذات أحزمة لفّوها حول رقابهم، ليعرضوا البضاعة على «السائحين» اليهود. كانوا يتجادلون في معاني بعض الكلمات العبرية، ويرددونها ليحفظوها، فتلك أداة عمل يستخدمونها مع زبائنهم. وقف أحد الصبية أمام النافذة التي يطل منها المعلم، ودقق النظر فيه أولاً، ثم أزاح رأسه في أكثر من مكان من الغرفة، يحاول أن يرانا جميعاً. حملق في المعلم وصرخ:

– هل انتهى إضراب المدارس! كيف تعلّمون تحت الاحتلال!

لم يجبه المعلم. وقف الصبي قليلاً ثم راح في طريقه. طالت وقفة المعلم

«عبد الجليل» على النافذة الوحيدة، نافذة تكاد تكشف الواجهة الشرقية من الغرفة، على شكل قوس كبير يستند إلى ذراعين مستقيمتين. اكترت وكالة غوث اللاجئين المبنى من أحد سكان رام الله، وحولته إلى مدرسة حتى الصف الثالث الإعدادي، فيها تسعة صفوف دراسية، باب كل صف يقابل باب صف آخر، يفصل بينهما ممر لا يرى الشمس ولا تراه. كل طلبة المدرسة هم من اللاجئين، فهذا من اللد، وذاك من الرملة، وآخر من يافا، ومن قرى مهجرة مختلفة، سمعت بأسماء بعضها، ولم اسمع بالأخرى. هذا يسكن مخيم الأمعري، وذاك مخيم قدورة، والباقون يسكنون مناطق مختلفة في «رام الله». وقف المعلم والعربات لا تشعر به، والمارة لا يشعرون به، وهو بين جدران الصف، مراقباً من طلبته. يراقبون كل حركة منه، وكل شهيق وزفير. شعور غريب ذلك الذي مررنا به، ماذا يريد أن يقول! ماذا سيفعل بعد الآن؟ أدار وجهه نحونا قليلاً، ثم أداره نحو السبورة السوداء، أمسك «الطبشورة»، ولم يكتب شيئاً، ثم صرخ فينا بصوت عالٍ:

– ما أول اسم أطلق على فلسطين؟

انتفضنا، ولم يجبه أحد، فطريقة عرضه السؤال لا توحي بأنه في انتظار إجابة. ثم ما هو الاسم الأول! أليست فلسطين هي الاسم الأول والثاني والأخير! توقف عن الحديث قليلاً، ثم سأل بصوت أكثر هدوءاً، ولكنه أكثر تصميماً:

– هل سمعتم في يوم ما عن شيء اسمه «خارو»؟

لم يجبه أحد. مرّ وقت خلناه طويلاً، إلى أن رفع «أسامة» يده. صرخ فيه المعلم:

– لا ترفع يدك، لا تأخذ إذناً مني، ما هي إجابتك؟

فقال بصوت خفيض:

– فلسطين.

لم يحسم المعلم الأمر إن كانت الإجابة صحيحة أم لا، لكنه أتبعه بأسئلة أخرى متتالية:

– هل تعرفون «رتنو»؟ هل تعرفون «كيناهي»؟ هل تعرفون «مريام»؟

توقف قليلاً ثم تابع:

– هل تعرفون أين يقع وادي نطوف؟ هل تعرفون أين بدأت الحضارة على هذه الأرض؟ هل تعرفون أشكال النطوفيين؟ هل تعرفون في أية فترة عاشوا؟ هل تعرفون مهنهم وعاداتهم وتقاليدهم؟

وسأل أسئلة أخرى لم يعرف أحد منا إجاباتها، ولم نجرؤ على الإجابة. خشينا أن تكون خطأ. لكن «أسامة» سأل المعلم:

– هل تستطيع يا أستاذ أن تبين لنا ما الذي تهدف إليه بطرحك هذه الأسئلة؟

اقترب منه كأنه على وشك معاقبته، لوح بيده قرب الطالب أكثر من مرة، وأشار بسبابته أمام عينيه، و «أسامة» يبتعد برأسه وبجسمه في هذه الجهة وتلك، خشي أن يقلع «عبد الجليل» إحدى عينيه، خشي على رأسه، فلف يديه على «نافوخه» وعلى أذنيه، شبكهما من وراء رأسه، وتطلع إلى المعلم من بين مرفقيه، صرخ المعلم فيه وكأن كلاً منا هو «أسامة»:

– كيف يمكن معرفة ما يحدث الآن إذا لم تعرف ماذا حدث في الماضي، وفي الماضي البعيد؟ كيف يمكن أن تفهم نفسك دون أن تعرف من هو أبوك ومن هي أمك، ومن هم أجدادك وأجداد أجدادك؟ كيف يمكن أن تدرك ماذا سيحدث غداً إذا لم تدرك ماذا حدث بالأمس، وأول أمس، ومنذ ثمانية آلاف سنة؟

هدأ رويداً رويداً، ومشى صوب الباب، وقُرع الجرس معلناً انتهاء الحصة الدراسية. لو طال الدرس قليلاً لحدثته عما حدث على «الكوربة»، لحدثته عن الدبابة والمدفع والشهداء في «بيت اللو»، لكني لا أعرف إن كان على استعداد لسماع قصتي. وددت لو وقفت وصرخت في وجهه: نحن الآن في الصف الأول الإعدادي، تجاوزنا المرحلة الابتدائية، لم نعد أطفالاً، كبرنا، لا نريد فقط أن نتعلم التاريخ الذي مضى، نريد أن نعرف ما هو دورنا في هذه الحياة، لكنه خرج.

كانت تلك الحصة الدراسية الأولى.

وكان ذلك اليوم هو الأول في الدوام المدرسي.
وكانت تلك مدرستي الأولى في مدينة «رام الله».

II

ساعدت أبي في نقل المتاع والأثاث القليل من الشاحنة إلى البيت الجديد. البيت هجره أصحابه منذ ستة أشهر، رحلوا إلى «عمان»، هذا ما أخبرنا به أبي. فرحت بالسكن في المدينة، وشممت رائحة أصحابه فيه. كانت «النملية» هناك في المطبخ، وكان الفرن هناك، وبعض الصحون والأواني وفناجين القهوة. رحل الحمام معهم، ورحل الكلب ربما إلى بيوت أخرى أو تاه بين الأزقة، أما القطة فقفزت بين أمتعتهم ورافقتهم.

كان الجو ماطراً، والغيوم تلف المكان، والرحلة طويلة بين «بيت اللو» و«رام الله». تبللت ثيابنا ونحن في صندوق الشاحنة، اختبأنا تحت الأثاث الذي ننقله، ولم تفد صيحاتنا بالسائق أن يتوقف قليلاً أو ينقلنا عنده. تنبهنا إلى أن المطر يبلل كل شيء: يبلل المتاع، ويبلل الطحين الذي نحمله معنا، والعدس، والقمح، وكل شيء. حاولنا أن نغطي الأغراض بحصيرة القش، لكن المطر كان يخترقها. حاولنا أن نفعل ذلك بقطع البلاستيك، لكنها شكلت قناة تصب في ناحية أخرى من الشاحنة، وبلل الماء أشياء مختلفة. حاولنا أن نفعل ذلك بأجسادنا، فردنا أجسامنا عليها دون جدوى. آه لو يتوقف المطر قليلاً، آه لو تتوقف الشاحنة قليلاً، أه لو جئنا في يوم آخر! صحت في السائق أن يتوقف دون فائدة، فإذا «علي» يقول لي بهدوء: لماذا تصرخ؟ إن المطر يغسلنا، لن نحتاج أن نغتسل حين نصل هناك. قلت: لكنه يبلل الأغراض. قال وهو يغطي رأسه ويبتسم: إنه يغسلها أيضاً، فنحن مقبلون على حياة جديدة.

حاولت قدر الإمكان أن أرى كل شيء في الطريق. حاولت أن أتذكر ما أعرفه، وأضيف إلى معرفتي شيئاً جديداً. حاولت أن أقاوم المطر، وأنا أختلس النظر من بين الأثاث الذي اختبأنا تحته. سألت «عليا» عن بعض الأماكن، عرفتْ بعضها، وجهلت مثلي بعضها الآخر. هذه هي مشارف «رام الله»، فذلك هو ضوء «عمود الإذاعة» يطلق إشارته المعهودة، ضوء أحمر يتردد كل بضع ثوان، كنا نشاهده أحياناً ونحن في «بيت اللو». تلك هي «سردا» التي يسكنها أولاد عم

بعض أهالي «بيت اللو»، وهذا هو سور المستشفى بجدرانه المبلطة، كنت أظنه أطول مما أراه الآن. وتلك قرية لا أعرف اسمها، وهذه «بيرزيت»، وهذه «قلعة الأسد». ما أجملك أيتها القلعة، عرفناك منذ طفولتنا، قلعة ضخمة توشك أن تقع وتسد الشارع، لكنها ظلت في مكانها منذ أن عرفت الدنيا، وهذا رأسها، قلعة أصغر منها، تعلوها، تلك هي «رأس الأسد»، والأسد لا يزال رابضاً مكانه، ربما منذ آلاف السنين، وهذا هو حرش «النبي صالح»، كانت «عليا» تأتيه في الصيف هي وزميلاتها «للقوش»، لجمع الأوراق من تحت شجره، لنستخدمها «زبلاً» للطابون. هذه هي مواقع الألغام التي فجرها العرب قبيل دخول اليهود، لكن ما أراه ليس سوى تفجير لا يمنع حتى هذه الشاحنة الصغيرة من المرور، ولم يمنع أية عربة أصغر منها، مجرد كشط في الشارع، وما اللغمان المتقابلان على سفحي الجبلين التوأمين بالدرجات الإسمنتية العالية إلا أثر من آثار القرية التي عشت فيها اثني عشر عاماً. هذه هي عيون «الزرقاء» حيث كنا نأتي في الصيف لنسبح في بركها الكثيرة، وهذه هي «عين الطويسة» التي تروي العطشان، ماؤها أبرد من الماء المثلج، وهذه «عين القوس» وهذه «عين البلد» التي كنا نأخذ منها الماء للشرب وللأغراض الأخرى. هذه هي «الكوربة» التي لعبنا عندها، وعشنا الحرب على أطرافها، قلبت الدبابة وقتلت اثنين من طاقمها.

وقف صبية يودعوننا، أشحت بوجهي عنهم، خفت أن يروا دموعي، حبستها، وحاولت أن ابتسم، نادوا عليّ وهم يلوحون بأيديهم، لم أجبهم، واكتفيت برفع يدي قليلاً، شعرت بالحزن لفراقهم، وشعرت بالفرح وأنا انتقل إلى المدينة التي سأسكن فيها لأول مرة، وسآتي القرية زائراً.

ذلك هو الوداع.

ذاك هو الطريق.

هذا هو المطر الأول بعد حزيران.

هذه هي رائحة السكن الجديد في «رام الله».

III

قال «الساوي»: لن أرحل عن القرية، لمن أترك كل هذه الأرض التي أملكها؟! ما هو مصدر الرزق الجديد الذي انتظره؟ لو رحل كل أهالي القرية، سأرحل فقط إلى نبعنا ومزرعتنا.

قال «عمي إبراهيم»: سأشترى قطعة أرض في «بيت اللو» وأبني لي بيتاً، وسأتزوج من جديد، فلا يمكن أن أظل هكذا بعد وفاة الحاجة زوجتي، قصة عودتنا إلى قريتنا الأصلية تبدو طويلة.

قال أبي: كنا نتمنى أن نرحل إلى الغرب، ولكننا لن نبتعد كثيراً هذه المرة، سنسكن «رام الله». هناك ستتعلمون، وسترون وجهاً آخر للحياة، وربما استطعت أن أجد عملاً.

قالت أمي: برحيلنا إلى «رام الله»، سنرى وجه الله، هناك أستطيع أن أرى بناتي كل يوم، وألاعب أحفادي. ربما نغير طعم الحياة، ولا بد راجعون في يوم ما إلى قريتنا. فالطريق من «رام الله» إلى اللد وقراها أسهل. ربما نبني بيتاً من الحجر بدل هذه «السقائف».

وقف المختار وقال: سأشتري هذه «السقائف» منكم، لتعود إليّ أرضي، لو رغبتم في البقاء هنا أهلاً وسهلاً، «المال زائل، والحياة زائلة، والرزق باق». إذا ما بقيت مختاراً للقرية سنرصف الشارع الترابي ونستبدل «الكوربة» به، تلك التي جلبت اللعنة إلى القرية.

قال «جامع»: هل تقبلون بي ضيفاً لو جئت في زيارتكم؟ أكيد، أنا أعرفك يا عم.

كثرت الشاحنات التي تنقل «اللاجئين» إلى الشرق، حملوا بعض أمتعتهم ورحلوا، معظم «السكنة التحتا» رحلوا. ظلت «الكوربة» هي الطريق التي تمر فيها الشاحنات الغادية والذاهبة. الدموع تساقطت، والعناق طال، والتلويح بالأيدي يتكرر كل يوم.

(1)

يومها كان الاثنين، وكان الوقت ظهراً، حملت الفأس، وقررت أن أرى ملكة النمل. وددت أن أرى هذا الشيء المجهول بالنسبة لي، وددت أن أرى هذا «البعبع» الذي يسمونه الملكة، فلقد رأيت في حياتي أشياء كثيرة، رأيت الأفاعي والعرابيد وطاردتني، ورأيت الجن والعفاريت وأخافتني، ورأيت ملكة النحل وعاملاتها اللواتي ورّمن وجهي، فلماذا لا أرى ملكة الأرض؟! ماذا ستفعل بي؟! إن كانت مخيفة إلى هذا الحد سأهرب منها، وإلا سأحتمل ألم قرصاتها.

حملت الفأس، وتوجهت إلى الحقل المشرف على «الكوربة»، يكشفها تماماً، ترى هناك الغادين إلى حقولهم والعائدين منها، وترى العربات القليلة التي تجلب انتباه كل أبناء القرية، ترى المسافرين إلى «رام الله» والقادمين منها، وإلى «دير عمّار» ومنها. كان الحقل يبعد مسافة بضع دقائق عن «سقيفتنا»، وكنت أعرف أن هناك مملكة للنمل، أمام مغارة «الرومي». كنا نستخدم المغارة لقضاء حاجاتنا، وقررنا منذ أسبوع أن ننظفها لنختبئ فيها إذا ما ابتدأت الحرب، فإنذارات الحرب كثيرة وعلاماتها واضحة، والإذاعات لا تكف عن نشرها، والصور الجماعية للزعماء العرب تم إلصاقها على أعمدة الهاتف الوحيدة في القرية.

قررت أن أرى ملكة النمل، وأقرب مكان أعرف فيه مملكة يقع أمام مغارة الرومي. اعتقدنا في السابق أن المغارة واسعة، يمكن أن تضمنا، وتضم غيرنا من العائلات، فبابها الخارجي يدل على سعتها الكبيرة، ولكم وددت أن أتعرف على دهاليزها؛ فهي محفورة في الصخر، وتعلوها أكوام من التراب والحجارة حتى أن الطريق المؤدي إلى الحقول الغربية يمر من فوقها. ساعدتنا في تنظيفها عائلتان أخريان، لكننا اكتشفنا أنها صغيرة، فهي من الخارج على شكل قوس كبير، مثل الشرفة تماماً، لها امتداد

صخري من الجانبين مثل أجنحة الطائر، فبرزت من بين التراب كعلامة فارقة لكل المنطقة التي تقع فيها، وهي تعلو المدرجات الزراعية الجنوبية الملاصقة لمباني القرية، لكنها من الداخل ليست إلا ثلاثة قبور كل منها في جهة، لا يستطيع الواحد منا الاختباء هناك إلا نائماً في أحدها، أما الساحة الداخلية بين القبور فلا تتسع إلا لثلاثة أشخاص آخرين مقرفصين، لم نجد عظاماً ولا أي شيء آخر، يبدو أن الكلاب والضباع وبنات أوى أخذت العظم منذ فترة طويلة، وربما الناس أنفسهم هم الذين فعلوا ذلك وهم يبحثون عن كنز قديم، فلم يبق سوى الغبار الناعم الذي يغطي الأرضية الصخرية. كنت أذهب هناك مع أخي «علي» وصديقي «حامد» ونتدرب على الاختباء في القبور وقت الحرب. لم يأبه أبي لكل ذلك، كان يتصرف وكأن الأمر لا يعنيه، لكنه لم يمانع في أن نحفر في المغارة وننظفها. تعامل مع الأمر وكأننا نجد شيئاً نتلهى به في هذه العطلة الصيفية التي بدأت منذ أيام. زارنا أكثر من مرة ونحن نعمل، وقال:

– هذه المغارة لا تنفع وقت الحرب.

– لماذا؟

– حجمها صغير، وهي تقابل الشارع المؤدي إلى «دير عمار»، وتقابل «الكوربة»، مدخل القرية. المغارة مكشوفة لا يغطيها شجر ولا حجر ولا جبل ولا تل.

– لكنها تتسع لثلاثة أفراد ينامون في القبور، وثلاثة آخرين بينها.

– هذه المغارة تتسع للأموات ولا تنفع الأحياء.

وددت أن أرى هذا الشيء المجهول بالنسبة لي، فذهبت هناك، وبدأت أحفر بيت نمل يقع أمام المغارة، أريد أن أرى الملكة، أريد أن أرى بعيني لا أن أسمع فقط ما يقوله «حامد». حدثني عنها، قال: «إنها كبيرة بحجم كف اليد. إن الإنسان يشعر بالرعب إذا رآها، تنظر إلى الواحد بعينيها فتسحره، وإذا أمسكت بالواحد مثلنا نحن الفتيان، فإنها تغرز ملقطها المسنن في جسمه ولا تفلته إلا وقد أدمته». وقال: «إنها ملكة الأرض التحتية، تشبه

الموت، بل هي تعيش مع الأموات، لذلك تراها تكثر عند القبور. إن النمل يسمع كل خطوات الإنسان، ويفهمها جيداً، يفهم معناها، فإذا كان الوقع سريعاً فهناك إنسان يركض، وإذا كان الوقع بطيئا فهناك إنسان يمشي، وإذا كان الوقع رتيبا مصحوباً بأصوات، فربما يكون هناك عرس أو جنازة، فإذا اجتاز الموكب المقبرة يكون الحدث عرساً، عندها لا يأبه النمل لما يحدث، أما إذا لم يجتزه ودخل المقبرة، عندها يكون هناك ميت، فتخبر النملة أختها، تخبرها بلغتها أن هناك غذاء جديداً، تحفر تحت الأرض، أو تسير في موكب فرح نحو قبر المتوفى، تحفر وتحفر أياماً ولياليا حتى تصل إلى الجثة، وتبني لها هناك مملكة جديدة قد تستغرق سنوات، تتغذى هناك، وتنام هناك، وتقي نفسها لهيب الشمس، وصرير الرياح هناك». وددت أن أرى هذا «البعبع» الذي يسمونه الملكة.

حملت الفأس وبدأت أنكش الأرض حيث يبدو باب المملكة. كان النمل يروح ويجيء، كانت تأتي وهي تحمل حبات القمح من الحقل، وكانت أخرى تخرج من الباب المشرّع نحو السماء ساعية لجلب المزيد. لم أكن قاسياً، فكثيراً ما حدثنا الأستاذ عن النمل وعن النحل أيضاً، حدثنا عن النظام الذي يتبعه، وحدثنا عن جديته وضرورة الاعتناء به وعدم التعرض له. حدثنا عن سيدنا سليمان الذي كان يفهم لغته، أنه حين أتى هو وقومه على وادي النمل من بني « شيصان»، فإذا النملة العرجاء «حرس» تأمر باقي النمل بالدخول إلى مساكنها خشية أن تحطمها الخيول بحوافرها. سمعها وفهم قولها، فابتسم وأمر جنوده بالرجوع، قال: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم. لم أرد أن أؤذيها، وددت فقط أن أتعرف على مخابئها، وأرى ملكة حتى لو كانت ملكة نمل. لو كان باستطاعتي معرفة ذلك دون تدمير بيتها لفعلت. لو كنت بحجم نملة لاختفيت بين النمل ودخلت زواريبه ولعملت معه، فأنا أستطيع حمل أكثر مما يحمل، ربما أحمل في يوم واحد ما يحمله النمل جميعاً في سنة، وربما ساعدته في جلب القمح والشعير مباشرة من البيت، وربما وضعت المؤونة في إناء يصعب على الماء الوصول إليه في الشتاء. ربما

استطعت أن أحفر له غرفاً ودهاليز يصعب عليه فعل مثلها، وربما خبأت الإناء في مكان آمن. آه لو استطعت التعرف إليه أو فهم لغته. آه لو كان يستطيع الكتابة لأعطيته ورقة وقلماً ليرسم لي هذه الدهاليز التي لا أعرفها، فهو يدخل بيوتنا في الليل والنهار، وهو يأكل من أكلنا، يعيش معنا، فلماذا لا يسمح لي بالعيش معه بعض الوقت فقط، أتعرف إليه ثم أخرج إلى سطح الأرض. أريد فقط أن أرى الملكة، لو تخرج إلي وتقول «أنا الملكة» لقبلت ذلك، وكلّمتها، وداعبتها، وأطعمتها، ورجعت إلى البيت راضياً. أنا مضطر أن أحفر بيتها وأن أراها. أردت أن أتعرف على طريقة خزن النمل للحبوب، فلا ينبت ثانية بفعل رطوبة التربة، لا بد أنه يفعل فيها شيئاً، ما هو هذا الشيء؟ هل يقوم بتقشيرها كما قال أبي، أم أنه يشق القشرة نصفين كما قال المعلم؟ وهل تقشيرها أو شق القشرة إلى نصفين يمنع الحبة من الحياة؟

بدأت أحفر الأرض وأنا أشعر بالرعب، أزلت الحجارة من حول مدخل مملكتها، فإذا نمل كثير مات، ودفن هناك. النمل يفعل مثل البشر، يدفن موتاه، لا يترك نملة تموت وتظل في العراء، الميت مصيره القبر، وقبور النمل تحت الحجارة وفوق الأرض. أخبرني «حامد» قائلا: الإنسان يعيش فوق الأرض، ويدفن موتاه تحتها، هذا هو العالم الآخر بالنسبة له، أما النمل فيعيش تحت الأرض، ويدفن موتاه فوقها، نحن نعيش في العالم الآخر بالنسبة له، أما النمل فيعيش في العالم الآخر بالنسبة لنا، كل منا يرى في الآخر مقره الأخير، يرى فيه نهايته. سألته: ولكننا جميعاً، نحن والنمل نجمع غذاءنا من فوق الأرض، فهل ما تقوله صحيح؟ صمت قليلاً، ثم قال: نحن والنمل نجمع الغذاء من كل مكان، من فوق الأرض ومن تحتها، نحن نأكل -أيضاً- مما ينتجه العالم الآخر، والنمل يفعل الشيء نفسه. النمل يأكل من منتجات عالمه، ومن منتجات عالمه الآخر.

شعرت بالرعب وأنا أحفر الأرض، ربما كان أسهل عليّ أن أنكش بيت أفعى من أن أفعل ذلك مع النمل، فالأفعى وإن كانت هي الأخرى من ملكات الأرض، إلا أن باب مملكتها يكون أوسع، وإذا ما سددته بحجر أو بطين

يصعب عليها الخروج، وعادة ما تخرج الأفعى برأسها، وأنا أحمل الفأس بيدي، فبضربة واحدة أستطيع قتلها، أما النمل فيخرج من الأرض، من أي مكان، ويتسلق على الرجلين، وعلى الفأس وعلى اليدين، ثم يبدأ يقرص، يدخل من تحت الثياب ويقرص هنا وهناك، حتى لا تجد حلاً سوى خلع الملابس ومن ثم قتلها أو إبعادها واحدة واحدة.

أقلت «لا أخاف الأفعى»! هذا ليس صحيحاً، لم أقتل في يوم أي أفعى، كنت أراقب الشباب والرجال وهم يقتلونها، كانوا يلاحقونها ويتعرفون على بيوتها الأرضية، يقبضون على الحجارة والعصي، ويشعلون قطعة مطاط أمام بابها، يمنعون الهواء من الدخول إلى بيتها، تشعر بالاختناق، فتخرج، وتكون نهايتها بحجر أو بعصا يحطم رأسها. أنا أخاف الأفعى، تصيبني قشعريرة حين أراها، يهتز بدني، وأهرب إلى أبعد مكان أستطيع الوصول إليه، أخافها حتى بعد أن تموت، بعد أن يتم تحطيم رأسها، ويبقى طرف ذيلها يتلوى ساعات، أدرك فقط أنها ماتت بعد أن يهدأ الذيل عن حركته، بعد أن تنتهي كلياً، بعد أن يهاجمها النمل وتصبح فريسة له في كل مكان من جسدها، لكني عجبت كيف يأكل النمل الأفعى وهي مصدر السم.

في هذا المكان بالذات، بل على بعد مسافة منه، وحين طلب أبي إلي أن أبحث عن حمارنا الذي لم يرجع بعد، وكان الوقت ظهراً، مشيت حافياً في الطريق فوق المغارة، ورحت أتطلع على جانبي الطريق، فالحشيش الجاف يصدر صوتاً مع أية نسمة ريح، أو مع حركة صرصور أو سحلية أو جندب. كنت أقف، وأدقق في مصدر الصوت، ثم أواصل المسير حين أطمئن. اقتربت نحو رجم حجارة جمعها أصحاب الأرض ليتمكنوا من حرثها بسهولة، فإذا صوت رهيب بين الأعشاب، شيء يقفز، بل شيئان، كانا عربيدين أسمرين. لمحتهما، فإذا هما يتجهان نحوي، إنهما يقصداننني. كانا يقفزان في الهواء، ويلحقان بي. كانا أسودين وطويلين وغليظين أو هكذا هيئ لي. أدرت وجهي نحو القرية وهربت. كيف وصلت البيت؟ لا أعرف بالضبط، هل حملني الهواء معه؟! فأنا لم أشعر بقدمي تلمسان الأرض، لم أشعر بوخز الشوك

أو قرقعة الحجارة تحت قدمي. أخشى لسان العربيد، وأخشى أنيابه الحادة، وأكثر ما أخشاه أن يطوق خصري أو رقبتي، ويشد، ويظل يشد حتى يعصرني تماماً، يشقني نصفين أو يقتلع رأسي عن باقي جسمي، أو على الأقل يخنقني، يهتز بدني كلما تصورت أياً من هذه المشاهد. لا أود أن أرى عربيداً أو أفعى، ماذا لو لم يخلقهما الله في هذه الدنيا! هل كان من الضروري أن نراها، وأن تعيش بيننا، وأن تشكل لي كل هذا الرعب! الحمد لله أنه لم يخلق لها أقداما، فهي مرعبة دونها، فماذا ستفعل فينا لو كانت تركض على أقدامها كما نفعل نحن. لم أعرف كيف وصلت البيت. كنت خائفاً، أرتجف، ويتقطع نفسي، وأصوات قفزهما على الأرض ما تزال تطن في أذني. جاءت أمي، سقتني من «طاسة الرجفة» لتزيل خوفي. منذ ذلك الحين وأنا أسير بحذر قرب رجم العربيد كما سميته. سألني «حامد»:

– أتعرف لماذا نخاف الأفعى؟

– لأنها مخيفة، ألا تراها وهي تتلوى على الأرض وتقفز في الهواء ثم تعود؟ ألا تدرك أنها قد تظهر فجأة من بين الأعشاب أو من بين الصخور المجاورة للطريق الذي تمر فيه؟ كم من مرة وجدناها فجأة في ساحة الدار بجلدها المرقط! توهمك بأنها آمنة، فإذا هي تفتح فاها ويبرز ذلك الشيء من بين أنيابها، لسان بشعبتين، تدور به يميناً وشمالاً!

– ليس هذا هو السبب الرئيس الذي يخيفنا، إن المسألة أكبر من ذلك بكثير.

– وما هي المسألة الأكبر من ذلك؟

– إنها تفصل بين الحياة والموت.

– وكيف يكون ذلك يا عبقري زمانك؟

– الأفعى تعيش تحت الأرض وتعيش فوقها.

صمت لحظات. صحيح ما يقوله «حامد»، بيوت الأفاعي تكون تحت الصخور، وفي الجحور، ونجدها أحياناً فوق الأشجار. تعيش بعض الأفاعي في الماء، وتعيش الأخرى في الجبال. كيف لم أدرك هذا الأمر من قبل! سألته:

– ولكن الرجال يقتلونها مرات، فهل يقتلون الحياة أم الموت!

– إنهم يغارون منها وهي تسير بلا أقدام، فهي بهذه القوة الرهيبة، تخيف الإنسان والحيوان معاً. إنهم يقتلونها من أجل أن يحيوا هم، فهي تهدد حياتهم، ولكنهم إذا وجدوا ثوبها وقد خلعته في مكان ما، يروحون يفركونه بأيديهم ويدهنون به وجوههم وكل أنحاء أجسامهم. إنهم عندئذ يبحثون عن الحياة فيما تخلصت منه.

– ولماذا تخلع الأفعى ثوبها؟ هل تفعل ذلك كما يفعل البشر كلما اتسخت ثيابهم!

– الأفعى تجدد حياتها بخلع ثوبها، والناس يحاولون تجديد حياتهم عند فرك ثوبها ودهن أجسادهم به. قالت أمي إن فرك الوجه بثوب الأفعى يعطيه نضارة.

– وهل يفعل النمل مثلها؟

– لا أعلم، فأنا أنقل لك ما سمعته من كبار السن، ويبدو أن النمل له عالم مختلف لا نعرف عنه إلا القليل.

شعرت بالرعب، وأنا أضرب باب المملكة بالفأس، كنت أرتجف، خيل إليّ أنني أضرب الأموات الذين أكلتهم أمهات النمل وجداته. خشيت أن تتعرف علي وتأكلني يوم أموت، تنتقم مني وأنا في القبر وحدي. علت دقات قلبي وأنا أفكر في ذلك المشهد، تهاجمني ولا أستطيع الدفاع عن نفسي. تأكلني قطعة قطعة وأنا أتفرج عليها، لا تدع فيّ قطعة لحم، وتترك العظام مرتبة كالهيكل الذي تعلمنا عنه في المدرسة. كم تمنيت أن يسدوا القبر عليّ جيداً لو مت، أن لا يدعوا أي منفذ لا للأفعى التي تنتقم لجنسها خاصة العربيدين اللذين لحقا بي، ولا للنمل الذي قتلناه عن قصد أو غير قصد، وفكرت أن يجعلوا للقبر متنفساً لو حييت بعد الموت، شرط أن لا يصله النمل، يمكن عمل ذلك من خلال قطعة قماش تسمح للهواء بالمرور ولصوتي بطلب النجدة، وتمنع النمل من الدخول. ضربت ضربة أخرى وأخرى وأنا أشعر بالعرق يتصبب من جبيني، ورجليَّ ترتجفان. ضربت الأرض بالفأس بكل ما أستطيع من قوة، والنمل يتسلق رجليّ. صرت أضرب الأرض برجلي

علّه يتساقط عني، أنفضهما نفضاً. ابتعد قليلا نحو مغارة «الرومي»، أقف في ظل قوسها، ثم أعود إلى حيث تكاثر النمل وتجمع وتفرق.

ضربت الأرض مرة وأخرى، فالجولة الأولى والثانية والثالثة، وأنا أركض لاختبئ في ظل المغارة. الشمس تلقي بأشعتها وحرارتها بشدة، وأنا لا احتمل الحرارة ولا قرصات النمل التي تصبح أكثر إيلاماً. أنظر ورائي خشية أن تكون الأفاعي قد اختبأت في المغارة. النمل من أمامي والأفاعي من ورائي. أنا لا أخشى الأفاعي التي تزحف صعوداً، بل أخشى تلك التي ستفاجئني من أعلى نزولاً. ماذا سأفعل لو وجدت نفسي محاصراً بين زحفين؟! ماذا لو قررت ملكة النمل الهجوم عليّ وأنا أدير ظهري؟! وماذا سأفعل لو كان العربيدان يراقبانني؟! لماذا لم أطلب من «حامد» أن يرافقني؟! سنعمل ظهراً لظهر، سيراقب هو في جهة، وأنا أعمل في جهة أخرى، سيحميني وأحميه، وسننجز مهمتنا بسرعة.

ابتعدت بضعة أمتار عن موقع المملكة الغامضة، وبسبب خوفي الشديد من أفاع قد تظهر فجأة من داخل المغارة، اعتليتها، كان الصخر منبسطاً، وكان باستطاعتي كشف مساحة لا بأس بها، فإذا ما سمعت «خرخشة»، أقفز إلى أسفل، فأبتعد عنها، أما تلك التي أسفل مني، فأستطيع مراقبتها بدقة. شعرت بقشعريرة تجري في جسدي وأنا أتخيل الأفاعي التي ربما ستظهر الآن. أمسكت بالفأس جيداً متحفزاً لأي طارئ. نظرت إلى قاع الوادي فإذا بها تلك الأرض التي نزرعها «مقثاة» للبندورة والفقوس والخيار والبطيخ. شعرت بالخوف وأنا أتصور المكان الذي نمت فيه قبل سنتين أنا و«عليا» ننطر المقثاة خشية أن تأتي «الواويات» فتأكل الثمر. غطيت جسدي، ولم أغط رأسي، خشيت أن تكون «عليا» قد نامت، لكني اكتشفت أنها خائفة هي الأخرى، فشعرت بالأنس، فها هي تشاركني خوفي. مرت الساعات دقيقة بدقيقة، كنت أشعر بالفرح كلما أحسست أن «واويا» يقترب، لأنهض من هذا الفراش، وأحمل العصا والحجارة، وأركض وراءه. سوف أشعر بالقوة رغم ارتجاف قلبي. سأراه يجري أمامي بسرعة،

فأشعر بالانتصار حتى على «واوي». كم شعرت بالفرح حين سمعت صوت أبي يناديا كي نرجع إلى البيت، بعد أن علّق بعض العلب المعدنية الفارغة على الفزاعات هناك.

نظرت نحو الشرق، أريد أن أرى شيئاً يبعث فيّ الشجاعة، رأيت «الكوربة» من جديد وهي ترسم فاصلاً أسود بين الأرض والأرض، وسقائف اللاجئين أمثالي، كان معظمها مغطى بألواح الزينكو، «السكنة التحتا» و «السكنة الفوقا» تلك التي نعيش فيها. رأيتها وهي تحيط بالشارع من الجهتين، وتقترب من «الكوربة». يا الله! هل يعني ذلك أن قرية «بيت اللو» كانت تعتلي الجبل، وكل هذه المنطقة فارغة من السكان قبل اللجوء. لماذا كانت القرية بعيدة عن الطريق العام إلى هذا الحد؟! أخبرني أبي أن سكان «بيت اللو» تضاعفوا بعد الهجرة. لماذا يسكن اللاجئون هنا في سقائف، بينما يسكن اللاجئون في «دير عمار» في مخيم، بنيت وحداته من الطوب والاسمنت!؟ لماذا لم تعترف وكالة الغوث بهذا التجمع كمخيم؟! كانوا في أحيان كثيرة يرفضون أن يسلمونا المؤن في «بيت اللو» ويفعلون ذلك في «دير عمار» ليؤكدوا عدم اعترافهم بنا. أرادوا أن يجمعوا اللاجئين إلى هذه القرى في منطقة واحدة، ليسهل عليهم تقديم الخدمات لهم كما قالوا، لكن الكثيرين رفضوا ذلك، ولم تقنعهم مقولة أنهم لا يستطيعون اكتراء أراضي أخرى وتحويلها إلى مخيم. بقوا في سفح جبل «بيت اللو» الجنوبي، فكانت هذه المساكن التي نرى ونعيش فيها.

نظرت إلى الغرب، فإذا ببعض بيوت «دير عمار» و «جمالا» تبدو من بعيد. ويشرف علينا جميعاً الجبل البهي، جبل «النبي غيث» بأشجار السرو التي تعتليه، وتحيط بمقام أحد الصالحين. جبل عالٍ، مثله مثل الشيخ الذي يلبس عمامة خضراء على رأسه.

لم أزره قط، لكني سمعت أن الناس يذهبون هناك ليتباركوا، وينذروا، فيشعلون الزيت، ويلقون ببعض النقود في مكان ما. سمعت أن أمثال «جامع» يذهبون هناك ويأخذون النقود التي يتبرع بها الناس، لكن آخرين قالوا: لا يجرؤ أي شخص على أخذ أي شيء من هناك، ولو فعل ذلك لقطعت يده على

الفور، فالقدرة الإلهية تمنع أي شخص أن يخطئ، ولهذا لا يمكن لأي شخص حتى أن يقضي حاجته على الجبل. ربما سأزوره في وقت ما. ربما سأنال بركاته حين أزوره. يجب أن أكون متوضئاً، ونظيفاً، آتيه بقلب أبيض، أرنو الغفران من الله. شبهته بجبل عرفات في مكة، فهناك يذهب الناس للتعبد، ولحل خلافاتهم، ولحلف اليمين في حال الشك في قول رجل أو امرأة. فكرت: لماذا لا نذهب ونختبئ هناك إذا ما اندلعت الحرب؟! إنه مكان يحميه الله، وتحميه روح «النبي غيث»، فمنه تستطيع كشف الآخرين ولا يستطيعون كشفك. ثم تذكرت مخاطر الذهاب هناك، فربما يعتقد اليهود أن المكان موقع عسكري نظراً لعلوه وبالتالي يقصفونه بالقذائف من الأرض ومن الجو. وكان «حامد» قد نقل لي ما سمعه من أبيه أن الجبل يقع قرب «دير عمار»، وهي القرية القريبة من «عين أيوب»، وأيوب هو أحد الصالحين الذي ولد له سبعة بنين وثلاث بنات، وبينما أعياه المرض، أرسل ابنة عمه لتأخذ خبزاً يقتاتون به من أحد البيوت، فقايضوها بشعرها الذهبي، فأعاد الخبز معها إليهم، وطلب من الله أن لا يزيد من عدد أهالي هذه القرية، وهذا يفسر هذا العدد القليل منهم، فسيدنا أيوب لم يباركها.

كنت أقلب نظري في الجهات المختلفة، وأؤخر نزولي للبحث عن ملكة النمل، فإذا «حامد» يأتي مسرعاً، يلبس قميصاً وبنطالاً غامقي اللون. كان جزعاً هو الآخر، وقبل أن أخبره عن حالتي، وقبل أن أسأله عن سبب ارتدائه هذه الملابس الغامقة، قال:

– ماذا تفعل يا مجنون! ألا تدري أن الحرب بدأت؟

ركضت بكل ما استطعت من قوة، علت أنفاسي وانخفضت، كنت أسمع صوت الهواء وهو يدخل من فمي ويخرج، ولم يعد أنفي كافياً كمجرى للهواء، ركضت مثلما ركضت يوم لحقني العربيدان. ركضت بكل سرعة. وقع الفأس مني، ووقعت أنا الآخر وأنا أحاول التقاطه قبل وصوله الأرض، «تكعفلت» كما « تتكعفل» دجاجة عند مطاردتها. شعرت بأن أحدهم يطاردني، لم أره يوماً، اسمه الحرب، والحرب لا تعني لي سوى الموت والتشرد كما

حدث مع أبي وأمي وإخواني وأخواتي الكبار. الحرب تعني أن الجيران سيتفرقون، والأقارب سيبتعدون عن بعضهم بعضاً، والأصدقاء سيصبحون جزءاً من الماضي. ما زال أبي يحدثني عن أصدقائه القدامى، وما زالوا موضوعا دائما أمام أصدقائه الجدد. ما زالت أمي تغني بينها وبين نفسها «مين قالك يا صحيبة تاترافقينا ... رحتِ وغبتِ وما عدت تعرفينا». منيت عائلات بفقدان أقارب لهم في الحرب، هناك من ماتوا، وهناك من ضاعوا، فما هو المصير الذي ينتظرنا نحن؟!

حملت الفأس وركضت من جديد. دخلت البيت، فإذا أمي تصيح في وجهي أن ألحق بها، أمسكت بيدها، وأمسك «علي» بطرف ثوبها، وركضنا معها. خرجنا من الزقاق المؤدي إلى الطريق العام، ومنها عبرنا بيت «الساوي» المقابل للشارع، حيث مغارة كبيرة يستخدمها آل «الساوي» زريبة لحيواناتهم. جلسنا في زاوية من المغارة، أنا وأختي «عليا» حول أمي، وكان الناس يأتون كما أتينا نحن، يصيحون ويولولون وهم يدخلون المغارة، يصيحون في أولادهم وبناتهم ألا يتحركوا من أماكنهم، وكان الرجال يأتون بزوجاتهم وأولادهم، يتركونهم ثم يعودون إلى بيوتهم.

كان الناس لا يزالون يأتون مهرولين نحو المغارة، فإذا «جامع» يأتي مسرعاً وقد حمل عصاً غليظة في يده. كان يحمل سيجارة في فمه، ويلهث. وقف على باب المغارة، وقال:

– لا يتحرك أي واحد من هذا المكان قبل أن تنتهي الحرب. نحن سنحضر لكم أي شيء تريدونه، إياكم أن تخرجوا من هنا.

أكبرت فيه هذه النخوة. كان طويلاً وضخماً، وكان جميلاً وقوياً، إلا أني لم استطع تفسير سبب حمل هذه العصا في وقت الحرب التي تدور بالأسلحة الأرضية وبالطائرات. صمت الناس حتى أدار ظهره، وسمعت امرأة تقول:

– لا تصدقوه، هذا سيستغل فراغ البيوت من أصحابها ليسرقها. أحكموا إغلاق بيوتكم، وخبئوا الأشياء الثمينة في أماكن آمنة.

(2)

كنا نائمين في المغارة، أنا و «علي» و «عليا». أفقت على صوت امرأة تدعو ربنا أن ينصرنا، وعلى صوت «الساوي» يصيح:

– ابشروا، تحركت القوات العربية، ها هي الدبابات قد جاءت لتضرب «إسرائيل».

تدافعنا على بوابة المغارة، ومن هناك وقفنا على السور المطل على المدخل الشرقي للقرية، سمعت هديراً قوياً، ولم أقو على رؤية شيء، سألت:

– أين هي الدبابة؟

صرخت «عليا» فيّ كي أصمت، فصمتّ. كنت مثل مؤمن يصلي. كان الموقف يبعث على الرهبة، مثله مثل الموت. لم أرد أن أغيره، أحتاج أحياناً لمثل هذا الموقف، يفعل فيّ فعله، يجعلني أقل سيطرة على جسدي، لا أشعر بأني أملك جسداً، أصبح مثل فراشة تطير فوق سطح الأرض. أشعر بقربي من أوراق الشجر، ومن الغيوم، ومن نجوم السماء، أرى الناس سواسية، أرى كل ما هو طيب فيهم وحسن، أخشع كما يفعل «عمي إبراهيم» وقت صلاته، ويتملكني الإيمان مثل زائر الكعبة. الصمت عكس الحياة، بل هو جزء من الحياة، وهو قبل الحياة وبعد الحياة، ألا يعيش الناس في الليل صامتين! ألم يكن الصمت قبل خلق الكون! ألا يكون بعده! هذا ما اخبرنا به استاذ «التربية الدينية». كل شيء من حولي يأسرني، يصيرني صامتاً، الليل من جهة، والحرب من جهة أخرى. الليل يوشك أن ينتهي، والحرب لا تزال في أولها. شعرت بالخوف وبالأمل معاً، شعرت برهبة الدبابة التي أسمع صوتها، وبصمت الليل الذي لم تقطعه بعد زقزقات العصافير، ولا صياح الديكة. كل الخطابات التي سمعتها من قبل سأرى وعود أصحابها الآن، كل الأغاني الحماسية التي حفظنا بعضها، ستلهب مشاعرنا أكثر. المسألة ليست لعبة، الكبار يفهمونها أكثر مني، وإلا لماذا طلبت «عليا» مني أن أصمت.

رأيت قبل أشهر رجال المنطقة وهم يتدربون. تدربوا طويلاً انتظاراً لهذا اليوم. كنت أشفق عليهم، خاصة وقت الظهيرة وهم يسيرون في مواكب، يقطعون الطريق بين «دير عمار» و «بيت اللو» جيئة وذهاباً. كانوا يصلون إلى «الكوربة» ثم يعودون. كانت «الكوربة» نقطتهم الأخيرة. لم أعرف السبب تماماً. عللت ذلك بسبب صعوبة السير في موكب في هذا المنعطف. كان القائد يصرخ فيهم: يمين، يسار، يمين، يسار، يمين. وإذا ما انحرف أحدهم عن الصف، أو قدّم اليسار على اليمين، هجم عليه القائد، وضربه بعصاه. في مرحلة لاحقة كنت أراهم وهم يحملون بواريد خشبية، ويأمرهم القائد: كتفاً سلاح، جنباً سلاح، أرضاً سلاح. وكانوا يطيعونه. أشفقت عليهم، والعرق يتصبب من جباههم وهم يلهثون، لكني تمنيت أن أصبح مثلهم. كنا نحن، الأولاد، نبتعد قليلاً عن موكبهم، ونفعل مثلهم، نخبط الأرض بأرجلنا فتصدر صوتاً موسيقياً، ونحن نصرخ: يسار، يمين. وكنا نحضر عصياً على أنها سلاح، ونضعها أرضاً وجنباً وكتفاً وخلفاً وأماماً وفوقاً وبعيداً وقريباً. تمنيت أن أصبح مثلهم رغم قسوة تعامل القائد معهم. لم أحبه كثيراً، كما لم أحب قائد الشرطة في «دير عمار»، فهو الذي جاء برفقة رجاله قبل حوالي السنة، كانوا يحملون عصياً، وبدأوا يضربوننا، كنا في مظاهرة نظمها الكبار لا أعرف غرضها بالضبط، هتفنا يومها: راس روس، يا أبو قصر يا جاسوس، بعت الوطن بالفلوس. لاقانا رجال الشرطة قبل أن نصل إلى المدرسة، وضربونا ضرباً مبرحاً، وفرقونا في الحقول المجاورة حيث كانت الأشواك أطول منا. مرت أيام ونحن نزيل الأشواك، ولم تزل آثارها إلا بعد فترة طويلة. رجال الشرطة لم يضربوني، لكن الذي فعل ذلك هو خادمهم، الذي كان يقدم الشاي والقهوة لهم، خلع حزامه العريض، وضربني به على ظهري ضربتين، فقفزت في الحقل المجاور الذي كان ينخفض أمتاراً عن الشارع، وهناك تلقفتني أشواك «الخرفيش» الكبيرة والمسننة.

أين هم الجنود الآن! لا أعرف. نحن أيضاً، طلاب المدرسة، تدربنا لمثل هذا اليوم، وزّعنا مدير المدرسة في مجموعات، واتفق معنا أن نخرج بأقصى

سرعة من الصفوف حال سماع صوت الصافرة، نركض في الحقول المجاورة للمدرسة، ونختبئ هناك. اختبأنا بين حقول الزرع، فاعترض صاحبه على ذلك، فهذا جهده وماله، فانتقلنا إلى أماكن أخرى. دربونا على الزحف وقت الحرب، وعلى طريقة نقل الجرحى وإسعافهم، وعلى التعرف على الأدوات المشبوهة وإبعاد الصغار عنها، وحفظونا الأناشيد الوطنية. حفظت: نحن الشباب لنا الغد، ومجده المخلد، شعارنا على الزمن، عاش الوطن عاش الوطن. حفظناها ورددناها معاً ونحن نقطع شوارع «دير عمار» و«جمالا» وأزقتها، وكنا نرددها ونحن نعود إلى بيوتنا.

بدأت الحرب، وراح كبار السن يؤشرون بأيديهم نحو «الكوربة». وفي الليل المقمر، رأيت شيئاً كبيراً يتململ، بل كان جزأين كبيرين: قاطرة ومقطورة، جارّ ومجرور، الجزء الأول هو الدبابة المجنزرة الكبيرة، والجزء الثاني هو المدفع الكبير. لم أستطع تحديدهما بدقة، إذ لم أر مثلهما من قبل. أسرعت لأوقظ «علي». دعوته أن يرى آليات الحرب التي أشاهدها لأول مرة. وقفنا بين أجساد النساء و «تعربشنا» على السور حتى نستطيع رؤية ذلك الشيء بوضوح. لم نجرؤ أن نخرج من ساحة بيت «الساوي» رغم قربه من الشارع، وآثرنا أن نبقى خلف الأسوار.

جاء والدي مسرعاً، وكانت معه أمي. ناما في السقيفة كما في الأيام العادية، خففا من روعنا، وقالا إنه يمكننا العودة إلى النوم، فكل ما في الأمر أن دبابة تجر مدفعاً تتجه صوب الجبهة مارة بالقرية. وقال:

– هذه الدبابة جاءت من معسكر «النبي صالح» المقابل للقرية.

اقتربت من النسوة اللواتي وقفن قرب السور، يدعون الله أن ينصر العرب وأن يكسر شوكة اليهود. كانت الدبابة كبيرة تحت ضوء القمر، كانت كبيرة جداً. كان المدفع ثقيلاً جداً، عرفت ذلك من بطء حركة الدبابة، فهي بالكاد تصعد الشارع، تجره وأنفاسها تتقطع، تقف لحظات ثم تستأنف السير من جديد. هي تجر المدفع نحو أعلى المنحدر، والمدفع يمنعها، يشدها إلى الخلف. كنت أحرك جسدي معها كلما توقفت قليلاً، وأغرز قدميّ في

الأرض وأحني جذعي ناحية الغرب كلما قارب المدفع إيقافها. شددت عضلاتي، خاصة عضلات رجلي، واصطكت أسناني، وتوترت أعصابي وأنا أحاول، مع الدبابة، التغلب على هذا الحمل الثقيل.

رأيت بعض الرجال، وهم يقتربون من الدبابة. كانوا يحملون بعض الأكل والشاي إلى جنودها، والدبابة تسير كما السلحفاة. هكذا هو الأمر في هذا المنحدر، تسير فيه الشاحنات ببطء شديد، حتى أن «جامع» كان يعتليها وهي تحمل «البطيخ» أو المشروبات الغازية أو أية أغراض أخرى، يفعل ذلك دون علم السائق، ويسرق بعض ما فيها. سمعت الرجال يهتفون للجيش، ويشجعونه، وسمعتهم يشجعون السائق علّه يغالب ما تبقى من أعلى المنحدر، وسمعت النساء يزغردن ويهللن ويدعون الله أن ينصر الجيش، وينصر العرب، وينصر «الشقيري»، ويحرر فلسطين، ويعيد اللاجئين إلى بلادهم التي طردوا منها قبل أن أرى الحياة في هذه القرية.

اختفت الدبابة بين الأشجار، أشجار التين والزيتون التي لم تقطف ثمارها بعد. كانت الأشجار تلوّح بأغصانها كلما اقتربت الدبابة منها، بل كانت هذه هي العلامة الوحيدة التي أتعرف فيها على موقعها، كانت تهتز ربما من شدة صوتها أو من قوة ما تبثه من بقايا وقودها واحتراقه. كانت الغازات السوداء الخارجة بقوة من العادم ترسم هالة حولها وحول المنطقة التي تمر فيها، وكنت أستطيع شم رائحتها من هذه المسافة البعيدة. كانت الدبابة تبتعد، وتختفي شيئاً فشيئاً، ولم أعد أراها، كنت أسمع صوتها يقل «هدرانه»، وتعلو بدلاً منه أصوات النساء من حولي وهن يطلبن إلى الله أن ينصرنا. كن يرفعن أيديهن عالياً، عالياً جداً، تحاول كل منهن أن ترفع يديها إلى أعلى وأعلى حتى يستجيب الله لدعائها. سمعت جارتنا تقول: «الله يا الله، أنت أعلم بحالنا، عشرون عاماً ونحن نعيش بعيداً عن بيوتنا، عشرون عاماً ونحن نعيش بعيداً عن أرضنا وحجرنا، عن شجرنا ومقاثينا. أكل البرد من أجسادنا، والسقائف لا تحمينا من حر شمسك، اللهم انصر أمة الإسلام والعرب، اللهم لا تخذلنا هذه المرة، هذه المرة فقط. أعنّا، وأرجعنا

إلى بيوتنا سالمين، اللهم لا تشمت بنا، ولا تشمّت الأعداء».

قرأت النسوة بعضاً من سور القرآن القصيرة، وتلون أدعية أخرى لم استطع حفظها. أما أمي فظلت هادئة. اقتربت مني ومن «علي» ومسحت على رأسينا، ولامست أكتافنا. كانت لمساتها مبعث حنان لنا، التصقنا بها، ودرنا حولها، أمسكت بيدها وقبلتها، وكذلك فعل «علي». أحنت جسدها، وقبّلت خدودنا، ثم راحت تدعو الله. قالت أشياء لم أسمعها، لكني أدركت ما تقول، وأدركت ما تفكر فيه. نزلت دموعها، وراحت تمسحها بمنديلها. أدارت وجهها إلى الجهة الأخرى علّنا لا نستطيع مشاهدتها وهي تبكي. الليل أخفى حالها عن الآخرين، أما أنا القريب منها، فكنت أدرك ما هي فيه.

نظرت نحو «عليا» فإذا بها تبكي هي الأخرى، بكت بصمت، ولامس جسدها جسد أمي، وبكتا معاً. اقترب أبي وقال بصوت خفيض:

– يا الله يا امرأة، هذه ستكون الحرب الأخيرة. لن يحدث مكروه لنا ولا لأولادنا، سيجتمع أبناؤنا من جديد بعد أن فرقت الكبار منهم حاجة العيش.

هذه هي الليلة الأولى التي ننام فيها بعيداً عن أمي، فلم يعد البيت لمبيتنا جميعاً، أصبح البيت مأوى هذه الليلة لأبي وأمي فقط، وكأن السنوات التي تجاوزت العشرين من زواجهما مرت هكذا، دون أن يرزقا بأبناء، فها هما الآن وحدهما، الأبناء ينامون في مكان آخر، هرباً من الموت، فالبيت لم يعد آمناً وإلا بقينا هناك. أبي وأمي يخاطران بنفسيهما مقابل أن يعيش أبناؤهما. ماذا ستفعل هذه «السقائف» في وجه قذيفة لو سقطت على البيت؟! لن يبقى منه شيء. مجرد حجارة مرصوفة فوق بعضها، يفصلها الطين ويغطيها من الخارج. بيوت تقلع الرياح الشديدة سقوفها في الشتاء، وتصبح مفتوحة على السماء، وتمتص حرارة الشمس في الصيف فتكوي من في داخلها. أمي لن تستطيع التأكد هذه الليلة من أننا ننام جيداً ونتغطى جيداً. لن تستطيع مرافقتنا إذا أردنا قضاء حاجاتنا. أمي لن تحكي لنا حكايات الأولين، وقصص الأطفال. نمنا جزءاً من الليل، وبقي الجزء الآخر دون أن

نعرف نهايته. يا لها من حياة! كنت أحس كم أحب هذه الأم، وأعرف اليوم كم هي تحبني، وأعرف كيف لا يستطيع أبي التعبير عن مشاعره كما تفعل أمي. يا لها من حياة!

كم ودت أمي أن ينهض العرب فيحاربوا، فهم يعدوننا كل يوم ولا بد أنهم سيفون بوعدهم. كانت الحرب بالنسبة لها أن نعيش في بيت يحمينا بعيداً عن السقائف التي تؤوينا، وأن كل «التحضيرات» التي يأتون على ذكرها في الأخبار هي من أجلنا، وتختصر فلسطين فينا. كم بكت من أجلنا، وكم بكت من أجل أن لا نلاقي نهاية لا تتمناها لنا. هي لا ترى أن هناك نهاية لنا، ترى نهايتها هي، ولا ترى نهايتنا، هي تعتقد أننا سنعيش إلى الأبد، وهي على استعداد أن تموت لأجلنا. خشيت أن نضيع في هذه الحرب قبل أن تقع، كانت تجالسنا، وتحاول أن تحفظنا أسماءنا، تسأل: ما اسمك؟ ما هو اسم أبيك؟ ما اسم أمك؟ ما اسم جدك؟ ما اسم عائلتك؟ من أي بلدة أنت؟ في أي قرية تسكن؟ أين تقع هذه القرية؟ كم تبعد عن «رام الله»، عن «دير عمار»، عن «جمالا»، عن «القدس»؟ لو كنت في «القدس» مثلاً كيف تعرّف نفسك للناس؟ كيف تعرّف قريتك الأصلية؟ كيف تصف موقع القرية التي نسكنها الآن؟ وكنت أجيب على الأسئلة، وكانت تصحح إجابتي كلما أخطأت، وتثيبني إذا أصبت. كان هذا الاختبار يتكرر بين اليوم والآخر، وكانت «فصاحتي» تقاس بقدرتي على الإجابة عن مثل هذه الأسئلة، فالأسئلة تتغير كل يوم، وتزداد صعوبة ودقة، أشعر بالإرهاق وقت الاختبار، وأشعر بالسعادة إذا اجتزته، والاجتياز بالنسبة لي أن أسمع المديح، كلمة «شاطر» كانت تكفيني، و كلمة «لسه» كانت تبعث فيّ الاضطراب من جهة، والدافعية لأن أكون فطيناً من جهة أخرى. كانت أمي تود أن تحدث الحرب وتخشاها في الوقت نفسه، تودها من أجلنا وتخشاها من أجلنا أيضاً.

أستطيع تفهم خوف أمي وأبي علينا، فما زلت أذكر الأحاديث التي كانت تدور بينه وبين مضيفيه من أهالي قريتنا الأصلية. أذكر قسمات وجهه البائسة والحزينة وهو يتلو مأساته ومأساتنا التي ورثناها عنهم. قال: قبل

رحيلنا عن «بيت نبالا» بعدة أشهر، وصلت أعداد كبيرة من النازحين من أهالي «العباسية» و «كفرعانة» و «سلمة» و «الخيرية» وغيرها إلى قريتنا، نزلوا ضيوفاً على القرية وهم يحملون معهم أخبار القتل والدمار التي قام بها الصهاينة، وفي صباح السبت، يوم الثالث من آب سنة ألف وتسعمائة وثمان وأربعين، وكان الأول من رمضان في تلك السنة، قامت طائرة إسرائيلية بإسقاط «كيزانين» على «قرنة الأرانب» قريباً من «جبل النقارة» الذي يقع شمال القرية، فخلفت الرعب في نفوس أهلها. في تلك الأجواء لم يشعر النازحون بالأمان في القرية، فبدأوا بالرحيل إلى الشرق، وكذلك أهالي القرية نفسها، شدوا على الخيول والحمير، وحضروا أغراضهم وبدأ بعضهم بالرحيل، وقام «عمي إبراهيم» بمحاولة لثني الناس عن مغادرة القرية دون فائدة، وقد حاول هو نفسه تشغيل «بابور الطحين» وحث الآخرين على العمل كما لو أن الأمور طبيعية. غلبه الناس، وقصدوا قرية «بدرس» على أمل أن يزول الخطر ويعودوا. معظم الناس راحوا مشياً على الأقدام يحملون معهم ما غلا ثمنه وقل وزنه، واستقر بعضهم على بعد ثلاثة كيلومترات فقط من المباني، في أرض القرية نفسها، استقروا تحت أشجار الزيتون. في يوم السبت التالي سقطت قرية «دير طريف»، وتقدم اليهود نحو «بيت نبالا» واحتلوا التلال الشمالية وبالذات «جبل النقارة»، وبدأوا بقنص المسلحين المتواجدين في القرية. قامت كتيبة من الجيش العربي بعبور قرية «بدرس»، واستقبلها الناس بالتهليل والزغاريد، بالألسن الجافة والقلوب الكسيرة المتلهفة للنصر والعودة، وتمركزت هذه القوة في مروج «زبن» من أراضي القرية شرقي جبل «راس الأقرع». أخذ أفراد الجيش باستجواب أهالي القرية حول المواقع التي يتمركز فيها العدو، وكيفية الوصول إليها، وتبرع ثلاثة من الرجال بمرافقة حوالي ثلاثين جندياً من المشاة إلى المكان، وانضم إليهم بعض المسلحين المتواجدين في قرية «بدرس» من أبناء القرى المجاورة، وعند الساعة الرابعة من صباح يوم الأحد الحادي عشر من تموز تسلل الجمع بمحاذاة البلدة من الجهة الشمالية حتى وصلوا كرم «أبو بكر»

المزروع بالتين والزيتون في أسفل «جبل النقارة» من الجهة الجنوبية الشرقية، وتواروا عن أعين اليهود تحت باطن الجبل الكثيف بالأشجار. كان المسلحون يحملون «برنات»، وقام قائد السرية بتقسيمهم إلى مجموعتين، المجموعة الأولى مهمتها الرماية، والمجموعة الثانية مهمتها تزويدهم بالذخيرة. تسللوا إلى «جبل النقارة» من الجهة الشرقية، وباغتوا اليهود المستحكمين وراء الصخور وداخل المغر. في الوقت نفسه، بدأ الجيش العربي بإطلاق القذائف نحو كل دبابة يهودية تطل برأسها، أطلقوا ثلاث قذائف، فدمروا العدد نفسه من الدبابات. انسحب اليهود نحو الغرب باتجاه «الهلمة»، فغنم العرب بعض السلاح وفقدوا شهيداً في موقع الكسارات، دفن هناك في اليوم التالي. في يوم الاثنين، الثاني عشر من الشهر نفسه، تراجعت القوات العربية إلى الشرق من «بدرس»، وبسبب الهدنة تمكن اليهود من تثبيت أقدامهم في المنطقة، فأصبحت «بيت نبالا» قرية محتلة. بدأت كل عائلة تفكر في البحث عن مستقر لها، وبسبب علاقات النسب والتجارة بين عائلتنا وعائلات من «بيت اللو»، كانت وجهتنا هذه القرية.

في مثل هذه المجالس، كان الحاضرون يختلفون حول الهجرة، تفاصيلها وأسبابها ونتائجها. «عمي إبراهيم» يحاول أن يضيف أشياء أخرى لما سمعه، وحين يتكلم ينصت الجميع. قال: لم نترك طريقة للمقاومة إلا حاولناها، لكن ما جرى مؤامرة، مؤامرة من بريطانيا. قال مؤكداً هذه المقولة: أنا أعتبر بريطانيا عدوة، كانت مسؤولة عن المنطقة العربية، تنفذ ما تريد وتختار الحاكم العربي الذي تريد، وهي التي سمحت لليهود بإقامة دولة لهم. وقال أيضاً: الدول العربية متواطئة مع اليهود وبريطانيا. برر طرحه بقوله: كنت أتجول حول القرية، فإذا بأحد أفراد الجيش العربي ينظر بالناظور نحو اليهود، فقلت له: لا حاجة للناظور، فها هم أمامنا مباشرة. فقال: من أي بلدة أنت؟ قلت: من «بيت نبالا». فأخرج من جيبه خريطة، وقال: أتعرف أين يقع «جبل الأقرع»؟ قلت: نعم. قال: خذ ربعك واطلع من «جبل الأقرع» إلى الشرق. وحين يصل «عمي إبراهيم» إلى هذه النقطة يصرخ: شو بعرف هذا

الجندي بجبل الأقرع إلا إذا كان مذكوراً على الخريطة التي كان يحملها؟! ويتابع «عمي إبراهيم» مصححاً ما سمعه: لم نرحل مرة واحدة، فبعد هجرة أهالي البلاد الأخرى بعد إلقاء القنبلتين على «قرنة الأرانب»، أرسل أهالي القرية النساء والأطفال إلى الشرق، لكن أعداد المهاجرين ازداد مع ازدياد حدة المعارك، والتحقنا نحن الآخرين بعائلاتنا، وظل بعض الرجال هناك رافضين أن يرحلوا. رجعنا بعد يومين وشغلنا بابور الطحين، فكان الرد من اليهود بإلقاء القذائف على القرية. وجدنا أن البقاء في القرية لا يسمح به اليهود وهم على أطرافها. خوف الناس مما جرى في «دير ياسين» وغيرها دفعنا للمحافظة على حياتنا. كانت هجرة الناس إلى الشرق أشبه بالطوفان البشري، وسحبنا هذا الطوفان معه.

حفظت هذه القصص وغيرها دون أن أفهمها تماماً، فأنا لا أعرف المواقع التي يذكرونها، لكني أعرف أنها أسماء مواقع في «بيت نبالا»، ولا أعرف مواقع القرى التي يذكرون، لكني أستطيع التفريق بين المواقع وأسماء القرى، بل إني أعرف أهالي بعض القرى التي يذكرونها، فبعض اللاجئين منها يسكنون «بيت اللو» وكذلك «دير عمار»، أذهب وإياهم إلى المدرسة وألعب معهم في الحقول أو في الحارة. أكثر ما خشيته حين يأتي والدي أو أي من أصدقائه على قصة تفصّل كيف خاضوا معركة مع المستوطنين اليهود أو مع الإنجليز، لأني أتصور القصة تحدث أمامي الآن، وكأني لا أعرف ماذا ستكون النتيجة. خشيت أن يكون أبي قد مات، أو أن يموت أمامي وهو يروي القصة، وأن نضيع بعيداً عن أنظار أمي، فنتفرق كما تفرقت بعض العائلات، وعاد الأهل لا يعرفون أين أولادهم أو أجدادهم. كنت أصاب بالهلع، وأمي تبحث عن إخواني وأخواتي وقت الهجرة، وهي تجمع العائلة، فتجد أن أخاً لي خرج ولا تعرف أين ذهب. خشيت أن يرحل أحدنا مع الراحلين، خاصة في الليل غير المقمر، ولا يفرق بين أن يكون هذا أباه أو غيره.

سألت «حامد» عن السبب، فقال:

– أهالينا يعيشون الماضي كما لو كان هو الحاضر، ونحن نعيش معهم.
– ولماذا لا يعيشون الحاضر؟
– لأن الماضي بالنسبة لهم أفضل من الحاضر.
– لكنهم يروون مأساتهم!
– ربما ليتخلصوا من هذه المأساة، يأملون ذلك.
– ولكن الماضي يأسرهم!
– الماضي بالنسبة لهم هو أرضهم التي أرغموا على الابتعاد عنها.
– وهل يكون مستقبلهم في ماضيهم؟
– لا أعرف بالضبط، لكني أعرف أنهم يودون صناعة مستقبلهم في أرضهم.
– وهل الأرض ما زالت لنا؟
– كل الكبار يقولون ذلك.
– ومن يستطع إعادتها إلينا؟
– الجيوش العربية.

تحدث بعض الرجال عن قوة جيش العرب لو نووا خوض الحرب، وتحدثوا عن شجاعته، وعن قدرته على مواجهة الأعداء بمثل هذه الدبابات. قال «عمي إبراهيم»، الذي حارب مع الأتراك ضد الإنجليز في أكثر من مكان:

– لو ألقت هذه الدبابة عشر قذائف، عشر قذائف فقط، لدمرت «تل أبيب».

رحت أتصور هذا المدفع العملاق الذي رأيت ماسورته قبل لحظات وهو يلقي بالقذائف واحدة تلو الأخرى ليدمر «تل أبيب» وكل ما فيها. يكفي عشر قذائف كما قال «عمي إبراهيم»، وتتغير حياتي وحياة أهلي، نرجع إلى الجنة التي يحدثوننا عنها، نعود إلى العيش بين أشجارنا ومقاثينا وحقولنا، نعتني بها ونرويها، ونزرع ونقلع، ففيها الخير الكثير، تربتها خصبة أكثر من أرض «بيت اللو»، ناعمة بفعل قربها من أرض البحر، لونها أقرب إلى اللون الأسمر، ربما مثل لون جلدتنا تماماً، مثل لون «البرونز» كما يقولون. هناك سنذهب في الصباح إلى المدرسة، المدرسة قائمة قبل أن يهجرها أجدادنا ووالدانا، أبقوا عليها وأبقوا على المقبرة كما قال المتسللون إلى

هناك. قال أبي: كنا نتسلل إلى القرية لنأخذ بعض أغراضنا التي تركناها. كنا نذهب على دفعات وفي مجموعات، تسللنا قبل أن يهدموا القرية وبعدها وإن قلت الوتيرة مع الزمن، كنا نتحرك بعد مغيب الشمس، نندفع بسرعة بين أشجار الزيتون، وننتقل إلى مباني القرية التي نعرفها جيداً، نحمل ما نستطيع من القمح والزيت والذرة، ونقفل راجعين. قال أحد أصدقاء أبي الذي كان يسهر معه تحت العريشة: تسللت سبع مرات، في المرة الأخيرة قبض الجيش الإسرائيلي علينا ونحن على بعد كيلومتر واحد شرق القرية. أخذونا إلى مغارة قرب «دير طريف»، وقاموا بتقشيطنا من ساعات اليد و«المصاري» وكل ما نملك، ثم أخذونا إلى «كمب بيت نبالا» الذي أقامه الإنجليز، حشرونا هناك سبعة أيام، لا يقدمون لنا سوى بطاطا ينخرها الدود، ونشرب من مياه البرك العادمة التي كان الإنجليز يصنعون فيها القرميد. ثم أخذونا إلى «كمب الأمريكان» القريب من مطار اللد، وهناك حققوا معنا، وبعدها تم سجننا في سجن «صرفند» و «عتليت» مدة تسعة أشهر، ليلقونا بعد ذلك خلف الحدود.

تعلقت روحي بماسورة المدفع التي ستدمر «تل أبيب». يكفي أن تقوم هذه الدبابة بتدميرها، وستتكفل دبابات أخرى بتدمير مدن إسرائيلية أخرى. لم أستوعب أنهم سيدمرون «يافا» أو «حيفا» أو «عكا»، فهذه أسماء لمدن عربية، ولم أفهم كيف يطلب الأهل إلى الله أن يساعدهم على التخلص من اليهود الذين يعيشون هناك. تصورت أن إسرائيل كلها «تل أبيب»، فإذا ما دمرت ينتهي كل شيء. كنت أتمنى على من تبقى من العرب الذين يعيشون في بعض المواقع التي سيستهدفها مثل هذا المدفع أن يبتعدوا قليلاً ليقوا أنفسهم شر القذائف التي ستمسح الغرباء مسحاً.

تعلقت روحي بماسورة المدفع التي لم أستطع تقدير طولها، أظن أنها طويلة وحسب، رأيت المستقبل يخرج من فوهتها، رأيت قريتنا من خلال فتحتها التي لم أرها بدقة. بالتأكيد كانت مدورة، فهكذا يكون المدفع كما سمعت ورأيت في الصور، يحيط بفتحتها تلك «قرطوس» من الحديد يشكل

مقدمته، يحيط به كما السوار، لم أعرف أهمية ذلك، لكنه المدفع. قالوا إنهم يغطونه بِ «شادر»، قطعة من القماش الجيشي، تشبه الطاقية، يلبسها المدفع على رأسه، يفعلون ذلك حتى لا تعشش فيه الطيور. رأيت الحياة من خلال المدفع، وظننت أن قطعة القماش هذه تشبه لباساً يستر بها عورته، يزيلها حين يود التخلص من الزائد فيه، فما ماسورة المدفع بالنسبة لي إلا عضو المدفع الذكري، سيقوم بمهمته ويخلق حياة جديدة، كان طويلاً، أطول من عضو الحمار. كان الشباب يتباهون بأعضائهم، ويتباهون بأعضاء آبائهم الكبيرة، رأوها وتفاخروا بها، وتمنوا أن يمتلكوا مثلها. الأعضاء الكبيرة من علامات الذكورة، والمدافع من علامات القوة والبطش والحياة.

أخبرني «حامد» سراً أنه حلم بأن عضوه طويل جداً لا يرى نهايته، وذهب إلى الشيخ يسأله عن تفسير ما رأى. أخبره الشيخ أن كل الذين يرون في منامهم مثل هذا الحلم لن يكون لهم أعداء في المستقبل. دهشت من هذا التفسير، وقلت:

– كل الشباب يحلمون مثل هذا الحلم.

– يعني لن يكون لنا أعداء في المستقبل حسب تفسير الشيخ.

– هل يعني أن هذه الحرب ستكون الأخيرة؟

– ربما، فالمستقبل ربما يكون بعد أيام أو بعد سنين.

– وهل يمكن أن يكون بعد عشرات السنين؟

– ربما.

– هل سيظل الشباب يحلمون مثل هذا الحلم إلى أن تنتهي الحياة، أم أن التفسير عكس ما قاله الشيخ؟

لم يجب. لا أبالي بحلم الشباب، ما يهمني هو ما أراه الآن، المدفع بالنسبة لي مثل الحمار، الحمار ينقلنا من مكان إلى آخر، ونحمل عليه أمتعتنا وثمار الحبوب التي نقطفها لنبيعها في القرية، أو خارجها، وهو الذي ننقل عليه الماء من الينابيع القريبة، نشرب منه، ونسقي مزروعاتنا، ونتسابق مع أمثالنا في طريقنا إليها. الحمار يساعدنا على الحياة، ولا بد

للمدفع أن يفعل ذلك. سمعت أبي مرة يقول إن كلاً من الحمار والفرس يدعوان ربهما كل ليلة قائلين: «اللهم سخرتني لابن آدم، وجعلت رزقي بيده، فاجعلني أحب إليه من أهله وماله، اللهم ارزقه، وارزقني على يديه». دعوت الله بصوت لا يسمعه أحد:

– يا رب، هب لنا حياة جديدة من خلال هذا المدفع الذي مر قبل قليل، كما وهبتها لنا من خلال الحمار الذي ييسر لنا حياتنا، وامحق أعداءنا لنصبح بلا أعداء بعد هذه الحرب.

ابتسمت قليلا، وتساءلت: حمارنا كنا نرعاه كل يوم، نأخذه إلى الحقول، ونطعمه ونسقيه، ولا نهينه، حتى أننا نبقي «حلسه» على ظهره حتى يجف عرقه، فلا يصاب بـ«لفحة هواء». ألا يكون هذا «الشادر» بالنسبة للمدفع مثل «الحلس» بالنسبة للحمار! يقدم لنا الحمار بالمقابل كل ما يقدمه، فهل يفعل الجنود مع المدفع كما نفعل نحن مع الحمار!

لم نعد نسمع صوت الدبابة. اختفى تقريباً. لم نعد نميز إن كان الصوت الذي نسمعه هو صوت دبابة أو طائرة، لا نعرف موقعها. تمنيت أن يرجع الرجال الذين ركضوا وراءها، وصاحبوها، وحملوا الغذاء والشراب إلى طاقمها، ويحدثونا عنها. إذا فعلوا سأنسل بين الرجال وأستمع لكل ما يقولونه. كل ما نريده هو أن تبطش هذه الدبابة بالأعداء، وأن نصبح بلا أعداء كما قال الشيخ. أتمنى أن يفعل المدفع فعلته، أن يتحرك يميناً وشمالاً، أن يتحرك فوق وتحت، بالضبط كما يفعل الحمار، ومن ثم يطلق القذيفة الأولى، فالثانية، فالثالثة... فالعاشرة.

لم يرجع الرجال الذين ذهبوا، أما جمع النساء فبدأ يتشتت، قلّت الأدعية، وانسحب بعض الرجال إلى بيوتهم لينام وا، وطالبونا بأن نعود إلى النوم. كان الليل موحشاً، ولم نعد نسمع سوى صوت رجل من هنا، أو امرأة من هناك، وأصوات أدعية تخفت شيئاً فشيئا، وبعض الرجال يتوضأون ويصلون. غالبني النعاس، ورجعت إلى المغارة لأنام. استمعت إلى بعض النسوة وهن يهدهدن أطفالهن لينام وا، وسمعت شخير بعضهم، غطيت

رأسي، ونمت.

صحوت مرة أخرى على جلبة، والأمهات يندفعن نحو باب المغارة الواسع، وبعض الأطفال يلحقون بهن ويصيحون. صرخت النساء في الأطفال أن يصمتوا. شدّني «علي» رغبة منه في أن نتبعهم، حاولت «عليا» منعنا، لكنها اقتنعت بأن تصحبنا بسبب خوفنا من البقاء في المغارة وحدنا. عرفت أن المدفع الطويل ألقى بقذيفة نحو تل أبيب.

سألت:

– هل سمعتم قذيفة واحدة فقط؟

فردت عليّ «عليا» بعصبية:

– نعم واحدة، هل تريد أن أذهب وألقي بالتسع الباقية!

أمسكت خنصر يدي اليمنى بباطن كفي، فخير ما نبدأ به هو اليمين، وأبقيت على الأصابع الأخرى مفتوحة على أشدها بما فيها يدي اليسرى التي سيأتي دورها بلا ريب، فردتها بكل ما أستطيع حتى لا أخطئ في العد، وقلت في نفسي كما يقول الكبار وهم يعدون غلتهم «الله واحد». آلمتني يدي اليمنى وأنا أشد على الإصبع الصغيرة، كانت تحاول الإفلات والانضمام إلى أخوتها الأربع الأخرى، وكان البنصر هو الآخر يقف حائراً بين الخنصر والوسطى، فلا هو مع الخنصر ولا هو مع الوسطى، وأنا أشد بكل قوتي. حاولت أن أقرّب الأصابع جميعها ممسكا بالصغير، فهذا يريح يدي، لكني خشيت أيضاً أن أخطئ. قلت في نفسي: الأمر لن يطول، وربما ستنهمر القذائف الآن مرة واحدة، ولا أستطيع عدها، الأفضل أن أحتمل قليلاً، فربما في هذه اللحظة سأسمع صوت القذيفة الثانية، وربما بعد لحظات، لماذا لا أحتمل هذا الألم البسيط، والجنود يحتملون الكثير، أنا لا أحارب في المعارك، إنما أقوم بعدّ القذائف التي يلقونها، هم الذين يفعلون، وأنا أعدّ. سمعت دعوات الحاضرين من حولي، وسمعت طلبهم أن نصمت.

صمت وانتظرت كما ينتظر الآخرون، ورحت أدعو الله في سري أن ينصرنا، فالله يستجيب لدعوات الأطفال. أنا أعرف ذلك من خلال تجربتي

الخاصة، فمرة ذهبت مع بعض الصحب إلى قعر الوادي الملاصق لجبل «النبي غيث»، وكان الفصل ربيعاً، وكانت المياه لا تزال تنز من الجوانب لتشكل سيلاً نشرب منه ونغسل أيدينا، وأرجلنا، ويقوم بعضنا ليسبح أو يستحم في تجمعاته. لعبنا هناك، وبنينا بيوتا من حجارة وطين، تشبه البيوت التي نسكن فيها، وجمعنا أوراقاً، وصنعنا منها مراكب تطفو فوق سطح الماء، وعملنا قنوات تسمح للماء بالمرور من حول البيوت التي صنعناها، ونقلنا عشباً ليشكل حدائق للبيوت. طال بنا الأمر هناك، خشيت أن يرجع أبي إلى البيت ولا يجدني، حينئذ ستحل بي كارثة، سيضربني ضرباً مبرحاً. لم أصرح بذلك مباشرة للأصحاب، فأصبح محل سخريتهم، لكني كنت بين الفينة والأخرى أطلب إليهم أن نرجع إلى القرية، وكان الرد أن العودة ما تزال مبكرة. كنت أستمتع بهذه الأجواء الربيعية، لكني كنت أود أن ننتهي بسرعة ونعود. اقترح «حامد» أن نتوضأ ونصلي، وبالفعل توضأنا كيفما اتفق، بل توضأنا بشكل جماعي، فعلنا ذلك مثلما تعلمنا في المدرسة، ثم اتفق على أن يؤم «حامد» فينا، وصلينا صلاة الظهر. كنا ستة أطفال، انتهينا من الصلاة، وخاطبنا «حامد» أن ندعو الله. دعوت الله أن يؤخر في رجوع أبي إلى البيت بعد عودتي أنا إليه. لم أطلب إليه شيئاً آخر، مثل النجاح في المدرسة، أو التوفيق، أو ابتعاد المرض والموت عني وعن أهلي. ذكرت قريتنا بشكل عابر، فلم تكن هي الموضوع المهم بشكل مباشر، وأبعدت صورتها عن مخيلتي، فالله كما قال «حامد» يستجيب لطلب واحد في وقت واحد. اكتفيت فقط بسلامتي حين أرجع، وبعد الرجوع سأطلب إلى الله شيئاً آخر. كررت ذلك ربما مئات المرات، قلت ذلك بهمس، وقلته في سري، وهكذا كان. إن الله يستجيب لدعوات الأطفال، استجاب لي من قبل، وسيفعل ذلك لي من جديد. دعوته أن ينصرنا، وأن يخرب بيوت أعدائنا واحداً واحداً، وأن نعود إلى قريتنا «بيت نبالا» التي لم أرها بعد.

مر الوقت، فإذا صوت قذيفة أخرى، كان قوياً، اهتزت معه الدنيا، أو هكذا تخيلت، وتعالت معه صيحات «الله أكبر»، وتعالت معه دعوات الرجال

والنساء أن ينصرنا ويخلصنا من سكن «السقائف». في هذا الجو المقدس، أمسكت ببنصري وقلت في نفسي «ما له ثاني». ظللت ممسكاً بهما بباطن كفي اليمنى، شعرت بالراحة حين انضم الأخوان معاً، وأبقيت على الأصابع الثلاث الأخرى مفتوحة، إضافة إلى أصابع يدي اليسرى. طال الزمن وأنا على هذا الحال، وكثرت الأحاديث بين الناس عن قوة الجيش العربي، وعن وجود قوات من الوطن العربي في مناطق فلسطينية أخرى، من مصر ومن العراق ومن أقطار نسيت بعضها. علت أصوات الرجال والنساء وهم يتحدثون عن الحرب وويلاتها، وعن رغبتهم في أن تكون هذه الحرب هي الأخيرة، ويعيش الناس في جنتهم كما يعيش معظم البشر.

حين سمعت القذيفة الثالثة كانت عضلات يدي قد أفرجت عن خنصر يدي اليمنى وبنصرها دون أن أدري، تنبهت لذلك فقط حين سمعت الضربة القوية، وسمعت تكبير الرجال ودعوات النساء وصراخ الأطفال الذين تعلقوا بأهداب أمهاتهم، بينما تعلقت بطرف ثوب أختي «عليا». أصررت على أن أظل ممسكاً بالأصابع الثلاث من الخنصر حتى الوسطى، فلا أفلتها حتى أسمع القذائف السبع الباقية، وقلت همساً: الثالث ثابت. تساءلت عن سبب هذا الوقت الطويل الذي يمر بين القذيفة والأخرى. ودون أن أسأل كنت أجد الإجابة من الحاضرين ذوي الخبرة في مثل هذه الأمور. قال «عمي إبراهيم»:

– يمر كل هذا الوقت وهم يعبئون ماسورة المدفع بقذيفة جديدة، فالماسورة تكون قد سخنت بحيث تستطيع حرق يدي كل من يلمسها، فلا بد من مرور وقت لتبرد، كما أن القذيفة ثقيلة جداً، وزنها حوالي عشرين رطلاً، لا يستطيع رجل واحد حملها، يحملها اثنان أو ثلاثة رجال، يفتحون الماسورة من الخلف، ويضعونها هناك، حيث تكون جاهزة للإطلاق.

وقال أيضاً:

– كلما بردت الماسورة كان المدى أكبر، والفعالية أكثر.

وأضاف:

– لا بد أن الرجال والشباب الذين لحقوا بالمجنزرة يساعدون الجنود،

فهذه هي الحرب.

طال الزمن ونحن في انتظار سماع أصوات القذائف السبع الباقية، فلا بد أن «تل أبيب» قد دمر جزء كبير منها، دمر حوالي ثلثها، وبقي الجزء الأكبر، وتخيلت «تل أبيب» مثل القرية التي أعيش فيها، ورحت أرسم خريطة للبلدة، وأوزع القذائف على المناطق التي أعرفها، فهذه هي «السكنة التحتا»، وهذه هي «السكنة الفوقا» وتلك «منطقة البيادر» و تلك القرية القديمة، وتلك وتلك وتلك. تساءلت بتعجب بيني وبين نفسي: يا الله، هل تستطيع قذيفة واحدة أن تدمر «السكنة التحتا» مرة واحدة! يا الله، «السكنة التحتا» يسكنها كثيرون، وفيها «سقائف» كثيرة مترامية، وفيها شوارع ترابية وأزقة، وفيها الشارع الرئيس الذي مرت منه المجنزرة التي تجر المدفع. هل تستطيع القذيفة الواحدة مهما بلغ حجمها، ومهما بلغت قوتها أن تدمر كل هذه المساحة؟! ماذا لو سقطت القذيفة في الشارع مثلاً، أو أخطأت هدفها في «الحواكير» وبين الأشجار المجاورة! هل المدفع الذي تجره الدبابة دقيق إلى هذا الحد! ثم تساءلت ثانية: هل تكون «تل أبيب» بحجم هذه القرية! لا يمكن أن تكون كذلك، فهي ليست قرية على كل حال، ربما هي بحجم «رام الله» التي زرتها من قبل، ربما هي أكبر كثيراً من المدينة التي أعرفها، نعم هي أكبر من ذلك، أنا رأيت «تل أبيب» من خلف المدرسة، كان معلم الرياضة يأخذنا في رحلة قصيرة مشياً على الأقدام نجمع له الزعتر والحلزون، نذهب إلى جهة الغرب، قال المعلم: هذه البيوت التي ترونها من بعيد هي بيوت «تل أبيب» و «يافا». كنت أرى بيوتاً على شكل شريط يمتد على مدى النظر من الشمال إلى الجنوب، ولم أر له نهاية أو بداية، وكانت الشمس تعكس إلينا الأشعة الساقطة على العربات الكثيرة المتحركة في الشوارع، كم تمنيت أن اقترب أكثر، لكن المعلم أخبرنا أننا الآن لا بد مراقبون من اليهود.

استطعنا مرة أخرى الاقتراب أكثر، رأى بعض الشباب شيئاً طائراً يحط غربي المدرسة، تسابقوا للتعرف على هذا الشيء، ركضت وراءهم، قطعنا سلسلة جبلية، وهناك كان الشيء الغريب مربوطاً بمظلة، وتدور مسنناته.

جاء رجال الشرطة، وأخذوه، وأخبرونا أن هذا الجهاز يستخدم للتعرف على أحوال الطقس، وكان مكتوباً عليه بلغات ثلاث منها العربية: إذا وجدت هذا الجهاز يرجى الاتصال بدائرة الأرصاد الجوية. لم يعده أحد، أخذه رجال الشرطة ولا أعرف ماذا فعلوا به. دققت النظر في البنايات التي أراها أسفل الموقع الذي نحن فيه، كانت بنايات شاهقة، و «تل أبيب» لا تنتهي، وحركة العربات في الشوارع لا تتوقف. إذن هل القذائف العشر الموعودة تستطيع تدمير «تل أبيب»! شككت في ذلك، لكن الكبار لهم آراء مختلفة، فمنهم من رأى هذا العدد من القذائف كافياً، ومنهم من رأى عكس ذلك.

انسحب «عمي إبراهيم» من الأحاديث الجارية، التي لا تتناسب تماماً كما بدا لي مع ما يفكر فيه، فهو لم يشارك فيها، لم يعلق عليها إيجاباً أو سلباً، ظل صامتاً، وسمعته يستغفر الله العظيم، ويتوجه نحو «سقيفته» القريبة من الشارع المؤدي إلى الحي القديم من القرية.

شعرت بالنعاس وبالإنهاك، لكن، كيف لي أن أنام في مثل هذا الوضع؟ تعلقت بأخي «علي»، وتعلق بي، وتعلقنا بأختي «عليا»، والتففنا حول أبي وأمي اللذين جاءا يشاركان المجتمعين أحاديثهم، ويستمعان لما يقولونه. سمعت المؤذن ينادي لصلاة الفجر، لم يذهب أحد إلى الجامع ليصلي هناك، فالوقت وقت حرب، والتجمعات غير مرغوب فيها، والله لا يعاقب الناس في هذه الحالة. سمعت «عمي إبراهيم»، بصوته الجميل، وهو يكبر للصلاة، ويقرأ الفاتحة. كان صوته كافياً لإسكات المتحدثين بما في ذلك المتهامسين. كان يتوقف بين الآية والأخرى، يرسم قاطعاً بينها، قاطعاً موسيقياً مريحاً، صرت أتمعن الآيات التي يقرأها، أقرأ فيها معاني جديدة غير التي تعلمتها في المدرسة. يا الله ما أجمل صوت «عمي إبراهيم»! كان يرفع صوته أحياناً، ويخفضه أحياناً أخرى، ويترك المسافات المؤثرة بين الآيات. كانت هذه الوقفات جميلة بالضبط كجمال الآيات التي يقرأها: بسم الله الرحمن الرحيم... الحمد لله رب العالمين... الرحمن الرحيم ... مالك يوم الدين... إياك نعبد وإياك نستعين... اهدنا الصراط المستقيم... صراط الذين أنعمت

عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين. قرأ الآيات السبع بصوته الدافئ، عددتها بادئاً بأصابع يدي اليسرى، وأكملت العد بما تبقى من يدي اليمنى، وبذلك أطبقت على أصابع يديّ كلها. تأكدت أنها سبع وليست ستاً، فالبسملة آية في هذه السورة على خلاف سور القرآن الأخرى عدا سورة النمل التي جاءت البسملة جزءاً من آية في بحرها. تساءلت: لماذا لم نتعلم القرآن وقراءته ومعانيه وموسيقاه كما يعرفها «عمي إبراهيم»! لماذا يكون وقع الكلمات في النفس في مثل هذا الموقف غير الذي يكونه ونحن في المدرسة! لماذا لم يعلمونا فن التجويد لنصبح مؤثرين في الناس من حولنا كما يفعل «عمي إبراهيم»! لقد علمونا أحكام التجويد في المدرسة مثل الإدغام والإظهار والإخفاء والإقلاب، لكنهم لم يعلمونا كيف نقرأ مثلما يفعل «عمي إبراهيم». لقد ذهب كثيرون إلى الصلاة، انسحبوا من أماكنهم، تركوا تجمعهم، وراحوا يتوضأون ويصلون. أعجبت أيضاً بطول «عمي إبراهيم» وعرضه، كان عملاقاً حتى وهو يلبس سرواله الطويل وفانيلته البيضاء، كان يظهر تحت ضوء القمر وهو يركع ويسجد، ورحت أتصور شاربيه العريضين حتى نهايتهما. «عمي إبراهيم» لا يهاب أحداً، لكنه يسلم نفسه لله، ويطلب إليه المغفرة والرضوان. شعرت بأن عضلات يدي أفرجت ثانية عن أصابعي، عدت فقبضت على الأصابع الثلاث ثانية، وأبقيت على السبع الأخرى مفرودة إلى أقصى مدى، لكن صوت «عمي إبراهيم» جعلني أرخيها، فلا يمكن أن أنسى عدد القذائف التي أطلقها المدفع الذي رأيته، وإذا نسيت، فلا بد أن الآخرين سيذكرونني بها.

أكمل «عمي إبراهيم» الصلاة، وسلم ناحية اليمين ثم ناحية الشمال، أو هكذا تخيلت، فإذا صوت الدبابة يقترب قليلاً قليلاً. أصخنا السمع، رحنا في صلاة من نوع آخر، يسيطر عليه الصوت الآتي من الغرب، وعلت معه أصوات الرجال الذين رافقوها، وعلت معهم أصوات الرجال والشباب الذين ركضوا تجاه الشارع لملاقاتها. زغردت النساء تعبيراً عن فرحتهن بسلامة الجنود والرجال، وتجمع الناس عند مفترق البلدة على الشارع

الرئيس، وراحوا يهتفون للعرب ونصرتهم، وتحلق بعض الشباب يدبكون، ويهزجون.

اقتربت الدبابة من القرية، كان كثير من الرجال قد اعتلوها، واعتلوا عربة المدفع، كانوا يلوحون بأيديهم وبقمصانهم وبكوفياتهم. كانوا يكبرون، و «يواوون»، ويهتفون للقادة العرب، ولزعيم الفلسطينيين «أحمد الشقيري». حين اقتربت من المنحدر، توقفت، وطلب الجنود إلى الناس أن يترجلوا عن ظهر الدبابة لئلا يحدث لهم مكروه أثناء نزولها. طلب إليهم أن يبتعدوا إلى أماكن آمنة، أن ينزلوا إلى المفترق، ينتظروهم هناك. نزل الرجال، وتجمعوا هم والنساء والأطفال قرب المفترق. سمع الناس صوت طائرة تقترب، كان صوتها شديداً، وسمع ما يشبه الانفجار، كان الانفجار قوياً جداً جداً، تفرق الناس على عجل في «الحواكير» وبين الأشجار، وصرخت النساء وبكى الأطفال، ولم نعد نسمع صوت الدبابة. نظرنا إليها من بين الأشجار، كانت كما هي، لم تصب، ولم تحترق، وسمعنا الجنود وهم بين الأشجار ينادون على الناس أن يبتعدوا.

– لا تخافوا فهم لم يقصفونا، كل ما حدث هو تفجير في الجو.

هكذا قالوا. ما هو التفجير في الجو؟ لا أعرفه، أعرف فقط أن الصوت الذي سمعته اسمه تفجير في الجو. هل يعني ذلك أنهم يفجرون الهواء! أو يطلقون قذائف صوتية مثلها مثل القذيفة الحقيقية! لا أعرف، لكني بت أعرف أن هذا تفجير كاذب هدفه التخويف. لقد خفنا، خفنا جميعاً، حتى الجنود خافوا وهربوا من الدبابة، واختبأوا بين الأشجار مثلنا، وإلا ماذا سيفعلون غير ذلك! اقترب الجنود من الناس، كانوا يحملون بنادقهم، وكانوا يتحدثون مثلنا، كانوا من أبناء آدم الذين نعرفهم، ولهم أسماء مثل أسمائنا: «سعيد»، و «عبد»، و «مروان»، و «محمد». وفي العتمة استطعت أن أقدر أطوالهم، لكني لم استطع تقدير ملامحهم، كل ما استطعت أن أميزهم به هو صوتهم، كانوا رجالاً بالمعنى المتعارف عليه، صوتهم أجش، يتكلمون باختصار، ويحسمون الأمر بسرعة. وددت لو اسألهم عن القذائف السبع

الأخرى التي لم يطلقوها، لكنهم أجابوا عن ذلك حين سألهم رجل عن المكان الذي ينوون الذهاب إليه. قال كبيرهم، وهو «سعيد»:

– نحن مكلفون بإلقاء هذا العدد من القذائف فقط، هذه القذائف الثلاث هي ما نملكه الآن، كانت حمولة الدبابة نحن الجنود الأربعة والقذائف الثلاث، تخلصنا من القذائف وبقينا نحن، لسنا وحدنا في ساحة الحرب، هناك دبابات أخرى ومدافع أخرى تقوم بمهمتها، نحن قمنا بما هو مطلوب منا، والآن نحن ذاهبون إلى المعسكر، وهناك مهام أخرى لنا في الطريق، ستعرفون بها حين ننفذها. الجيوش العربية تعمل في عدة محاور، ونحن نعمل في تشكيلة واحدة من أحدها.

سأل «عمي إبراهيم»:

– كم عدد المحاور التي تعملون فيها؟

– لا أعرف بالضبط، ربما بعدد الدول العربية المشاركة في الحرب.

– وكم هو عدد الدول العربية المشاركة؟

– ربما سبع.

– وهل كل دبابة تلقي بثلث القذائف الواجب إلقاؤها؟

– صلي على النبي يا حاج، الحرب لا تزال في بدايتها، ولن تكون طريق قريتكم هذه هي الوحيدة التي سنسلكها.

– هذه ليست قريتنا، إننا نسكن فيها فقط منذ عشرين سنة.

– أأنتم من سكان «السقائف»؟

– نعم، بيوتنا هدمت، ومواقعها قرب المواقع التي ألقيتم بالقذائف نحوها.

– أنعم وأكرم يا حاج.

– هل سنعود إليها؟

– قول: «إن شاء الله».

– إن شاء الله.

جاء الرجال بصواني عليها بعض الأكل، وجاءوا بالشاي والقهوة، وجاء المختار. افترش الجنود الأرض، وأكلوا وشربوا. حاولت قدر الإمكان

الاقتراب منهم، بينما أمي وأبي يطلبان إلينا أن نبتعد، قالوا: إن الإسرائيليين يستطيعون رؤية الناس من الجو، ويستطيعون رؤية الدبابة، ولا بد أن الطائرة التي مرت أحست بها، وأنها لا بد راجعة. ابتعدنا في الجهة المقابلة، وطلب الجنود إلى الناس أن يبتعدوا أكثر.

سمعت صوت الدبابة من جديد، بدأت تنزل المنحدر، كان المنحدر قصيراً إلى حد ما، لكنه حاد. مشت الدبابة مشية السلحفاة، بالضبط كما صعدته، كان المدفع الكبير يضغط على الدبابة لتنزل مسرعة، وهي تحاول منعه. كان المدفع يدفع الدبابة إلى الأمام وهي تكبح جماحه. كان يحاول الوصول إلى أسفل بالسرعة الممكنة، والدبابة تحاول أن تثنيه عن ذلك. كان مثل ابنها الطائش يحاول أن يفلت من يدي أمه، وهي تمسك به بكل قوة، كان عصبياً في تصرفاته وهي تحاول أن تهدئ من روعه. سارت الدبابة ببطء، كانت أبطأ من نملة وهي تحاول الحفاظ على توازنها. رأيت المدفع وهو يحاول الإفلات من عقاله، يروح شمالاً ويروح يميناً، يضغط على الدبابة، وهي تمسك به جيداً. كتم الناس أنفاسهم، وصاح بعضهم:

– على مهلك يا حضرة الضابط.

وتلا بعض الرجال آيات من القرآن، ورفعت النساء أيديهن إلى السماء طالبات أن تمر هذه الليلة على خير.

انتهى المنحدر، ووصلت الدبابة إلى مفترق القرية بأمان، اقتربت أكثر، ودققت في المدفع من جديد، لكن عتمة الصبح منعتني من ذلك. استطعت فقط تمييز الهيكل الخارجي للمدفع، كانت ماسورته طويلة، أطول مما قدرت في المرة الأولى، وكان رأسها مغطى ثانية بـ«الشادر» الجيشي لكنه أكثر انحناء في عودته مما كانه في ذهابه. لماذا يغطون رأسه الآن! أيخشون أن تعشش فيه الطيور وهو عائد! لا يمكن أن يحدث ذلك، المسافة قصيرة، ودرجة حرارته لا بد عالية، والوقت ليل، يعني لم تبدأ الطيور بمغادرة بيوتها. هل يعني ذلك أن مهمة هذا المدفع قد انتهت الآن، وسيسجل أنه عاد إلى قواعده سالماً! لماذا يعود المدفع مثل الرجل الخجول! ذهب وهو مرفوع

الرأس، فلماذا يخفضه! هل يخجل من سكان هذه القرية وهو عائد قبل أن يدمر «تل أبيب»! هل يخجل بسبب عدم إلقائه سوى ثلاث قذائف! لماذا يحني رأسه الآن والمعركة لم تنته!

حاولت أن أقدر وزن القذيفة وحجمها من خلال حجم الماسورة، فلم أستطع، خشيت أن أبالغ فيه، أو ربما عليّ أن أقبل بما قاله «عمي إبراهيم». فكرت: لماذا لا تكون الدبابة والمدفع قطعة واحدة! لماذا الدبابة والمدفع يشبهان التراكتور وآلة الحصاد التي يجرها، أو آلة الحرث! لو ركب هذا المدفع على الدبابة، ربما يكون ذلك أسهل. دققت في المدفع ثانية وحاولت أن أحدد أوجه الشبه بينه وبين الحمار، وجدت شيئين، الأول هو الماسورة الطويلة، والثاني أن الحمار يجر عربة «الدراس» وراءه على البيدر رغم أن الأمر هنا منعكس. كم أعجبت بالماسورة الطويلة، ودققت جيداً لأرى معالم الحياة التي سيهبنا إياها، ويعيدنا إلى قريتنا. آه لو كانوا يملكون عدداً أكبر من القذائف ليدمروا تل أبيب وما حولها! لكنهم لم يفعلوا، اكتفوا بالقذائف الثلاث التي يحملونها، تمنيت أن أتحول إلى طير عملاق، أطير نحو معسكر «النبي صالح»، وأحضر القذائف السبع الباقية، فيقذفها المدفع من خلال فوهته، ثم قلت في نفسي: لو تحولت إلى مثل الطائر العملاق، واستطعت حمل القذائف لما احتجت إلى الدبابة أو المدفع، يكفي أن أحملها وألقيها فوق معسكرات العدو، وينتهي كل شيء. هذه هي الحياة، لم تكتمل الفرحة، ولم تنته المأساة بعد؛ فأهلي لا يزالون ينامون في «السقائف»، والمسافة بيننا وبين بلدتنا الأصلية لا تزال بعيدة.

أمر قائد الدبابة الناس بأن يبتعدوا عن المنحنى الحاد، فهم سيسلكونه هذه المرة. لن يسلكوا الطريق الذي صعدوه، إذ صعدوا من أرض ترابية، وتحاشوا الطريق الرسمي المعبد. خافوا أن تنقلب بهم هناك، فالنزول كما قالوا أصعب من الصعود. الآن سينزلون من الطريق الرسمي ذي المنحنى الحاد. صاح بهم بعض الرجال أن يسلكوا الطريق الذي صعدوه، لكنهم رفضوا، قالوا إن الطريق الترابي مليء بالحفر والمطبات، وأي اختلال في

توازن المدفع إذا ما وقع عجله فيها كاف لقلب الدبابة بأكملها. وافق بعض الرجال، ووافقهم المختار الذي كان يعرف السياقة جيداً. ولم يوافقهم آخرون بسبب معرفتهم الدقيقة بالمنعطف، فهم يعرفون عدد السيارات التي انقلبت على «الكوربة». تبرع بعض الرجال أن يأتوا بالفؤوس والمجارف لردم حفر الطريق الترابي، تبرعوا أن يعملوا فيه حتى الصباح، لكن قائد الدبابة حسم الأمر:

– يجب أن نصل المعسكر قبل طلوع الشمس.

جاء «جامع» راكضاً، كان يحمل عصاه، جلب انتباه الناس وهو يركض، يضع السيجارة في فمه، ويلهث، وراح يهتف وحده. التفت الناس إليه باستغراب، فهو لم يظهر منذ ذهاب الدبابة، فأين كان! وماذا كان يفعل! معظم البيوت خالية، ومعظم الناس يختبئون في مغارة «الساوي». لم يحضر أي شيء للمختبئين كما وعد، ولم يقف حارساً على بوابة المغارة، فأين كان! كان متحمساً حين جاء، ركض أمام الدبابة وراح يؤشر بيديه للسائق أن يدور يميناً أو شمالاً، أن يبطئ قليلاً. شعر الناس باشمئزاز من هذه الحركات، أوقف القائد سير الدبابة، وصاح به أن يبتعد، وأمره المختار أن يقف مع الواقفين، وأن يصبح رجلاً ككل الرجال.

ابتعد الناس، وراحوا يبتهلون إلى الله أن يحميهم، طلبوا إلى الله، أن يعمي طائرات العدو عنهم، وأن يتمكنوا من تخطي «الكوربة». سارت الدبابة ببطئها المعهود وهي على الطريق الأفقي المتجه شرقاً، وأبطأت أكثر حين وصلت إلى «الكوربة». كانت «الكوربة» عبارة عن وصلة بين «رميين» كما نسميها نحن اللاجئين، أو بين «حبلتين» كما يسميها أهالي «بيت اللو»، وكان «الرمى التحتاني» معلقاً بطول رجلين أو أكثر، كانت «الكوربة» تلتف بين الشارعين: شارع يتجه نحو الشرق، والثاني نحو الغرب، ولا يفصلهما سوى بضعة أمتار من الأرض لا تتسع لأكثر من شجرة زيتون، لكنها لا تلبث أن تنفرج كلما ابتعدت عنها. كنا في السابق نلعب هناك، كنا نصنع دراجات من الخشب، لها ثلاث عجلات من «البيليا» نشتريها من «رام الله» أو يشتريها لنا

الكبار حين يذهبون هناك، اثنتان في المؤخرة، وواحدة في المقدمة، كنا ندفع بعضنا بعضاً على الطريق الأفقي، ونترك الباقي لمهارة راكبها. كان عليه أن يسير مع المنعطف دون أن ينقلب، كان على قائد الدراجة أن يفعل ذلك بالسرعة المناسبة. كان يتحكم بمسارها من خلال رجليه، ومن خلالهما أيضاً كان يتحكم بسرعته، كان يضغط الأرض بحافتي رجليه، وربما يستطيع ذلك من خلال الضغط على العجل الأمامي، أما لزيادة السرعة فكان يجذف الأرض بيديه، يلمس الأرض، ويدفعها إلى الخلف، فتنطلق الدراجة إلى الأمام. كثيرون انقلبوا عند هذا المنعطف، وكثيرون جرحوا في معظم أنحاء أجسادهم. كان الخوف من أن ينقلبوا ويقعوا أسفل الشارع، وقليلاً ما حدث هذا. أما هذه الدبابة فربما يكون أمرها مختلفاً.

سارت الدبابة خطوة خطوة، توقفت بعد كل واحدة منها، «ريحت» كما قال «عمي إبراهيم»، ثم انطلقت من جديد. أطال السائق من الالتفاف، قلل الانحناء، أخذ طرف الشارع البعيد، فزاد من قطر دائرة مساره. سمعت الدعوات من جديد، وسمعت آيات من القرآن، ولاذ الباقي بالصمت وهم يراقبون الحركة، ويميلون بأجسادهم كما الدبابة، وفعلت أنا الآخر مثلهم. كانت أجسادنا تتحرك كأنها هي الدبابة، صرنا نحن جميعاً نقودها من بعيد، نميل نحو الشمال ونحو اليمين، ونغرز أقدامنا في الأرض، ونميل بجذوعنا إلى الخلف خشية أن تقع. تجاوزت الدبابة المنحنى، وأصبحت على حافة الشارع السفلي، وكان المدفع وراءها، يحاول أن يدفعها إلى الأمام، وهي توقفه. اهتز المدفع، ومال شمالاً ويميناً، وراح الناس يبتهلون ثانية، بل لم يتوقفوا عن الابتهال، وبت أسمع أصواتهم تعلو. توقفت الدبابة من جديد، قلّت اهتزازات المدفع من ورائها حتى توقف تماماً. كان المدفع بالضبط في منتصف «الكوربة». كان واقفاً في منتصف المنحدر الذي يصل بين الشارعين، ماسورته الطويلة تتجه شمالاً، بينما الدبابة تتجه غرباً. كانت «الكوربة» «قوية» كما قال الكبار، وكان مجال الحركة محدوداً. تمنيت أن يأتي الرجال بحبال، يربطوها في ماسورة المدفع، ويشدونها كلما اهتز.

فكرت في أمور كثيرة منها أن نضع أثقالا كبيرة فوق جسم المدفع لتمنعه من الاهتزاز، لكن شيئاً من هذا لم يحدث، لم أقله ولم يسمعه غيري. تسمر الناس في أماكنهم، ولم نعد نسمع سوى زقزقات عجلات الدبابة وهي تتحرك «سناً» وراء آخر. تحرك المدفع إلى الأمام، وراح ينحرف شيئاً فشيئاً تجاه الدبابة. كانت عجلاته اليمنى قد اقتربت كثيراً من الحافة السفلى للشارع، خشي الناس وقوعه، لكن الدبابة توقفت ثانية، ليتوقف المدفع في مكانه الجديد. كان المدفع ثقيلاً، وكانت الدبابة ثقيلة جداً، سمعنا صوت انهيار بعض الحجارة من أمام عجلاته. صاح الناس على طاقم الدبابة بأعلى أصواتهم أن يقفزوا. وبالفعل قفز اثنان، وبقي الآخران في الداخل. قال بعض الرجال إن الدبابة يلزمها سائقان لا واحد، فهي ليست مثل السيارة، وصدقنا ذلك نحن الذين لا نعرف عن سياقتها شيئاً.

توقفت الدبابة على هذا الحال وقتاً، ربما مر ربع ساعة، والجنديان المترجلان يتفحصان إمكانية المرور سالمين. قرر قائد الدبابة أن يمروا. سارت الدبابة من جديد. كانت تتوقف قليلا ثم تستأنف المسير. وصل عجل المدفع قرب الحفرة التي خلّفها الحجر الذي سقط من مكانه. توقفت الدبابة. اهتز المدفع، اهتز قليلاً ثم بدأ يسكن، فإذا حجر آخر يسقط، اهتز من جديد، اهتز أكثر، اهتز..اهتز..اهتز. مال يميناً ويميناً، ثم مال يميناً أكثر وأكثر، تعلق بين الدبابة و «الرمى التحتاني» ، أصبحت مؤخرته معلقة في الهواء، وهو يرتكز بمقدمته على طرف السلسلة الحجرية. دار برأسه نحو الجنوب، واتجهت ماسورته نحو السماء، ولا تزال مؤخرته معلقة في الهواء، كان أشبه برجل يقضي حاجته على طرف سلسلة. توقف هناك قليلاً والناس يصرخون، ويكبرّون، ويضعون أيديهم على وجوههم، يغطون عيونهم، ويصرخون. الجميع يصرخ، النساء والرجال والأطفال، أداروا وجوههم إلى الجهة المقابلة، وهم يصرخون، وفعلت مثلهم، فإذا صوت ارتطام عنيف، بل صوتان متتاليان: صوت المدفع، وصوت الدبابة، انقلب كل شيء، وعلا الصراخ، وراحوا يركضون نحو الدبابة والمدفع المنقلبين.

(3)

مر الوقت طويلاً قبل أن أنام، رحت استحضر أسماء الجنود الذين رأيت قامة كل منهم. من هو «سعيد»! ومن هو «عبد»! ومن هو «مروان»! ومن هو «محمد»! لم أهتد لأي واحد منهم، كانوا كلهم متشابهين في مخيلتي، فما الفرق عندي أن يكون «مروان» و«محمد» هما اللذان استشهدا! إذ كان بالإمكان أن يستشهد الأربعة لو قرروا البقاء في الدبابة، وكان بالإمكان أن يظلوا جميعهم في قيد الحياة لو مروا من الطريق الترابي، أو على الأقل لن تسقط هناك حجارة من تحت عجلات المدفع، ولن يسقط المدفع أسفل «الرمى». ظلت التساؤلات تضرب مخي من كل جانب، لم يكن هناك سوى احتمالين: الطريق الترابي الذي مروا منه أثناء صعودهم، والطريق المعبد أثناء نزولهم. قالوا: إن الصعود أسهل من النزول. حسم القائد الأمر بسلوك الطريق المعبد وقت النزول، ووافقه المختار. في الصعود يكون دور الدبابة جر المدفع، ومن الصعب أن ينزلق، فعجلات الدبابة المسننة تنغرز في الأرض، وتمنع المدفع من الانحراف يميناً أو شمالاً، لكن في النزول يكون دور الدبابة توجيه المدفع، وهنا يمكن للمحاولة أن تنجح أو تفشل، واحتمالات النجاح أكبر من الفشل. في الطريق الترابي ستكون حركة الدبابة والمدفع في اتجاه واحد، يتجاوزان فيه المنحنى الحاد، يتجاوزان «الكوربة»، يتعاملان معها كما لو أنها غير موجودة. كان يمكن لأهالي «بيت اللو» ولساكنيها أن يعملوا قليلاً فيردموا بعض الحفر الكبيرة، وتسير القافلة على ما يرام.

لماذا نزل القائد من الدبابة، وصار يقود حركتها وهو خارجها؟ لماذا لم يقدها هو؟ لماذا لم يقدر أنها ستقع تحت الشارع؟ ما هو شعوره وهو الذي ساهم بشكل أو بآخر في انقلاب الدبابة؟ هل يشعر بتأنيب الضمير؟ لو كنت مكانه لواريت رأسي عن الناس، لاختفيت عن أنظارهم. لو كنت مكانه لأخبرت القيادة بما حدث، وطلبت منهم أن يحملوني مسؤوليته. كيف يستطيع البقاء في الموقع الذي قتل فيه اثنان من رفاقه؟ ها هو يتجول حول الدبابة والمدفع، ويتمعن فيهما. أعرف أنه يشعر بالحزن الآن، ولكنه القائد، يعني

هو المسؤول عمّا جرى. أراد أن يصل «النبي صالح» قبل طلوع الشمس، وها هي الشمس قد طلعت، وهو في الموقع ذاته. ألا يعرف الألم الذي سببه لكل أهالي القرية؟ ألا يعرف الجرح الجديد الذي أصاب اللاجئين الذين يسكنون هذه القرية؟ تعلقت آمالنا به وبطاقم الدبابة وبالمدفع، وها نحن نرى النتيجة بأعيننا.

لماذا قرر القائد أن يسلك «الكوربة»! لماذا فضل الطريق الملتوي على الطريق المستقيم! لماذا لم يقف أهل القرية وساكنوها وقفة رجل واحد، ويصروا أن يرجع من الطريق الذي أتى منه! لماذا لم يسدوا طريق «الكوربة» أمام الدبابة بأجسادهم! فهم يعرفونه أكثر من القائد، ويعرفون كل شبر منه، ويعرفون مخاطره وعدد الحوادث التي رأوها. ربما لو سلكوا الطريق الترابي، لاهتز المدفع قليلاً بين هذه الحفرة وتلك، وربما أعاقت الحفر سرعة نزوله. ربما انقلب إلى جهة من الجهات، لكن الانقلاب في تلك الحالة لن يكون كما نرى الآن، وربما ظل الجنود جميعاً أحياء، رحم الله هؤلاء الشهداء بغض النظر عن أسمائهم، فهذه مجرد أسماء لأناس لهم مهام في هذه الحياة.

صحيح أن ليس لي الآن مهمة سوى الدراسة والتعلم، وصحيح أني أساعد والدي في الزراعة: في زرع الخضار، وفي قطف ثمار التين والزيتون وبيعها، وفي حصاد الحبوب من قمح وشعير وعدس وكرسنة. صحيح أني أساعدهم في نقل الماء من «عين البلد» إلى البيت، وصحيح أني أذهب بعد المدرسة وفي العطلة الصيفية لرعي ما تبقى لدينا من أغنام، وفي بعض الأحيان أرعى الحمار، إلا أنه ليست لدي مهمة محددة ودائمة. قال لنا الأستاذ مرة: أنتم هنا لصناعة مستقبلكم، مستقبلكم سيكون أفضل من حاضر والديكم وإخوانكم الكبار، ستكونون مسلحين بالعلم والمعرفة. فهمت مقصده، لكني لم أفهم جيداً أهمية هذه الحياة! تساءلت وما زلت دون أن أجد لذلك إجابة محددة. قال المعلم إن لنا مهاماً أو أدواراً نقوم بها، ولا يزال الوقت مبكراً للتعرف عليها.

كم سمعت من كبار السن وهم يستعجلون الموت، إنهم يودون أن ينتهي دورهم، ربما شعروا بالملل من هذه الحياة التي تجبرهم على القيام بالدور الخاص بهم، أو ربما لا يودون أن يقوموا بأي دور. حين يكون الموت تصغر الحياة في الأذهان، تصبح لا شيء. الحزن على فراق ميت يقتل الدور، بل يوقفه، يصل أوجه حين دفن الميت، أما بعده فيأخذون أدواراً أخرى إلى أن ينتهي زمن العزاء، فيستأنفون أدوارهم من جديد. رأيت رجالاً كثيرين يبكون أمام الميت أو خلفه، رأيت الأطفال يبكون، ورأيت النساء يبكين ويمزقن ثيابهن، ويعفرن وجوههن بالتراب، كن أقرب إلى حالة الانتحار وهن يضربن صدورهن، ويلطمن خدودهن. كن يضربن مراكز الحياة فيهن، قلوبهن ورؤوسهن. كن مستعدات لأن يفقدن هذه الحياة بعد وصول خبر الموت. سمعت رجلاً يصرخ في الناس أن يفسحوا له مكاناً لينام في القبر مع أبيه المتوفى، كانوا يبعدونه، لكنه يصر أن يفعل ذلك، ويحاول أن يلقي نفسه في القبر، يحمله الناس بعيداً، ثم تهدأ الأمور بعد إدارة الظهور للمقبرة، تصبح الحياة لها معنى آخر، فأول ما يفعلونه أنهم يأكلون، يتناولون الغداء في بيت أحد أبناء القرية، ويشربون القهوة، وحين يعودون إلى البيت، يستقبلون الناس، ويقومون على خدمتهم، يقدمون لهم القهوة والماء والسجائر، وتعتني الأمهات بأبنائهن، ويعود الأطفال للعب حتى في ساحة الدار التي سجي فيها الميت قبل قليل. يبدو أن هذه هي الحياة. في هذه المرة كما في كل مرة، أسمع فيها عن ميت، أبقى بعيداً، لا أقترب من المكان إلا بعد أن يدفنوه، لم أر في حياتي ميتاً، وأتمنى أن لا أراه. تصوري أن هناك إنساناً كان يتحرك قبل قليل، ويتكلم، ويمشي، ثم خمد مرة واحدة، يرعبني. تصورت الميت إنساناً آخر، بل لم يعد إنساناً على الإطلاق، فما هي الصورة التي أنظر فيها إليه. تخيلته إنساناً مسكوناً بكائنات لا أعرفها، وإذا اقتربت منه ستسكنني، لذلك ابتعدت. من الجهة الأخرى كنت لا أدرك كيف يقترب الناس منه، حتى هؤلاء، كنت أبتعد عنهم حتى أنسى قضية الموت.

كان بعض الرجال يصرّون على حضور غسل الميت، ويشاركون فيه.

كانوا يعتقدون أن المشاركة في غسله تعالج بعض الأمراض الجلدية. «الثآليل» تزال إذا مسها ماء غسل الميت، فلذلك كانوا يشاركون في هذه العملية، ويصرون على أن يلمس الماء المنساب من على جسمه أيديهم، وهناك من كان يجمع الماء في وعاء، يأخذ بعضاً منه إلى زوجته وأولاده، يحضر قطعة قماش، يغمرها في الماء، ثم يدهن به الأجزاء التي أصابتها «الثآليل». يقسم الرجال، وتقسم النساء أن «الثآليل» تزول بعد مدة. لم أومن بذلك حقاً، وربما شعرت بالقرف من هذه الطريقة في علاجها، فإذا كنت لا أقوى على الاقتراب من ميت ورؤيته، فكيف لي أن أفعل ذلك مع الماء الوسخ الذي طهرّوا به الميت. فضلت على ذلك طريقة غرز حبوب الشعير في «رأس الثالول»، ومن ثم في حبة باذنجان، نخبئها في مكان بعيد عن أشعة الشمس، ثم ننتظر مغيبها، ونروح ندفنها في أقرب «مزبلة»، جربت أمي ذلك معي ومع أخواتي ولم تختف «الثآليل». «حامد» الذي يكبرني سناً، وكان يقترب من الميت، ويلمسه أحياناً، وينقل الماء لهم في أباريق، فما أن ينتهوا من واحد حتى يناولهم الآخر، قال: الميت لا يخيف أحداً، الميت إنسان نائم، لن ينهض، مغمض العينين، لا يتحرك، سلم روحه إلى الله، وانتهى أمره. سألته:

– ولكن الكبار يقولون إن روحه تبقى ترفرف فوق جسده، أهذا صحيح؟

– إن كانت كذلك فلم يلمسها أحد، ولم تلمس أحداً، يعني أنها لا تخيف الحي.

– وهل انتهى دور الميت؟ هل انتهت مهمته؟

– نعم، فالله سيحاسبه على الدور الذي قام به قبل لحظة الموت.

– هل كان يمكن أن تكون مهمته غير التي عرفناها؟

– ربما، لو أراد الله ذلك، ولو اختار في حياته غير الذي اختاره.

– وهل دور هؤلاء الناس أن يصلّوا عليه ويدفنوه ويترحموا عليه؟

– نعم، فهناك دور رئيس يقوم به الفرد في حياته، هو عمله، هو طريقته في كسب العيش، وفي إطعام أولاده، لكن هناك أدواراً أخرى إلى جانب الدور الرئيس، يقوم بها الفرد كل يوم دون أن تكون مرتبطة بالعمل.

– كيف؟

– أن تطيع والديك، أن تحمي إخوانك الصغار، أن لا تعتدي على أحد، أن ترد السلام، أن تجامل الناس، وأشياء أخرى كثيرة أنت تعرفها.

– هل يعني ذلك أن دورنا يكون قبل أن نتسلم عملنا، وقبل أن يصبح لنا أسرة نعيلها؟

– نعم، ما يتغير هو الدور الرئيس الذي تقوم به حين تصبح مسؤولاً عن كل شيء.

كلام «حامد» يقنعني، لا أعرف من أين تعلم كل هذه الأشياء، فهو لا يكبرني بأكثر من ثلاث سنوات، أنا أنهيت المرحلة الابتدائية، وهو أنهى المرحلة الإعدادية، لكنه يجالس الكبار، ويعمل على خدمتهم، يحضر لهم الشاي في مجالسهم، ويذهب إلى المدرسة، ويساعد أهله كما أفعل أنا نفسي، لماذا هو مختلف عني! تساءلت وتمنيت أن أستطيع التحدث مثله. المسألة ليست لها علاقة بالحجم، فهو في حجمي تماماً، نحيف وقصير، ولا يمتلك عضلات، ولا يحصل على علامات في المدرسة كالتي أحصل عليها. ما تزال الأسئلة نفسها تدور في ذهني: هل من الواجب أن يكون لنا دور فيها؟ هل خلقنا من أجل هذا الدور؟ هل خلقنا لنعمل أم أن العمل هو وسيلة للحياة؟ لم أسمع أحداً يقول إننا خلقنا من أجل أن نتمتع بهذه الحياة. قالوا: تأتي المتعة من خلال العمل. وهل الأكل والشرب عمل! وهل التجول بين الأودية والجبال عمل! وهل الزواج عمل! تصورت طوال الوقت أن تلك الأشياء ليست عملاً، وأننا فقط نستمتع بها. كان بودي أن لا نسميها عملاً، فتختلف صورة الأشياء في مخيلتنا، فالعمل يعني بالنسبة لي التعب والشقاء وبذل الجهد، أما المتعة فترتبط بالروح وبالإحساس رغم أن هناك جهداً نبذله. لا أتصور بالضبط ما هو دوري في هذه الحياة، ولا أعرف ما هي مهامي. أعرف فقط الدور الذي أقوم به الآن، أعرف أني ما زلت فتى لم يتجاوز الثانية عشرة، يفعل كل ما يفعله الفتيان في مثل سني، أساعد العائلة كما يطلب إليّ، وأذهب إلى المدرسة، وألعب مع الأقران كلما أتيحت

أمامي فرصة.

مر الوقت طويلاً قبل أن أنام، تقلبت في الفراش، وقمت للتبول أكثر من مرة، ورأيت الشمس وهي تقضي على هذه الليلة الطويلة. خرجنا من المغارة، وذهبنا إلى السقيفة علّني أنام فيها. كان الجميع هناك: أبي وأمي، وأخواتي وإخواني. في مثل هذه الأيام لا يذهب أحد إلى الشغل، الجميع عاطل عن العمل. العمل الوحيد الذي يقومون به هو الاستماع للأخبار، وقليلة هي أجهزة المذياع المتوفرة في القرية. كان أبي يملك واحداً منها، لذلك يجتمع الرجال طوال النهار تقريباً في ساحة الدار المطلة على «السقائف» الثلاث التي نملكها، وهم بذلك حاولوا أن يحاكوا «الحوش» في قريتنا الأصلية، فأعمامي وأبي بنوا سقائفهم ظهراً لظهر ليشكلوا مثلثاً تحيط به الأزقة، كان أعمامي وأبي يعيشون في حوش واحد من بين سبعة أحواش في القرية، ورغم أن أبي وغيره حاولوا الخروج من هذه الأحواش مع تقدم الزمن، إلا أن كل مجموعة من الأقارب بنوا بيوتهم قرب بعضهم بعضاً، في «بيت نبالا» وفي غيرها من القرى. وهكذا هو الحال مع أهالي «بيت اللو» فيها سبعة أحواش لثلاث حمائل، إحدى السقائف في بيتنا الحالي عبارة عن «خشة»، مبنية من الطين المجبول بالتبن الناعم فتعمل على تماسك المبنى، سموه بِ «السمكة»، وقد أضافوا إلى الحيطان بعض الحجارة «الغشيمة». كانوا يحضرون التربة الصفراء «الحورة» من مكان يقع بين «بيت اللو» و «دير عمار»، يبنون منه البيوت والطوابين. كان الرجال يجلسون تحت «عريشة» صنعت قوائمها وأذرعها من جذوع الأشجار، وترتكز في ناحيتين على سلسة حجرية تفصلنا الأولى عن دار عمي، وتفصلنا الثانية عن زريبة الحمار. تتسلق العريشة شجرة «حنون الساعة»، هذه الشجرة تبهجني قدر ما تخيفني، فهي جميلة المنظر، ورحيقها حلو المذاق، وتتماسك أغصانها فتمنع أشعة الشمس من الوصول إلينا، لكنها من الجهة الأخرى تجذب الأفاعي كما قال أبي. لم أر يوماً أفعى عليها، لكن كلما حاولت النوم هناك أظل أتطلع فيها، أبحث عن أفعى تتسلقها، كنت أتخيل أي غصن هو أفعى، وكانت مجموعة الأغصان بالنسبة لي ما هي

إلا أفاعٍ تتشابك مع بعضها بعضاً، فكنت أخاف أن أنام هناك ليلاً، وكنت أفضل أن أفعل ذلك نهاراً.

الأخبار مجموعة من الأغاني الوطنية، ومجموعة من البيانات العسكرية. هناك من الأغاني ما لم أسمعه من قبل، يبدو أنها كتبت ولحنت على عجل، وهناك أغان كنت أسمعها من قبل: سمعت «كبر .. الله أكبر، احتلينا جبل المكبر»، و «جيش العروبة يا بطل الله معك»، و«صح يا رجال». كانت الأغاني تنبعث من إذاعات الدول العربية كلها، وبرغم أني سمعت بعضها قبل هذا اليوم، إلا أن لها طعماً مختلفاً لو سمعتها في وقت آخر، فالزمن هو الحرب، والفصل هو الصيف، والشهر هو حزيران، ولم يعد لمعرفة الأيام معنى محدد، فالعطلة صيفية، ولا يوجد فرق كبير بين الاثنين والخميس والجمعة. البيانات العسكرية ليس لها أثر كبير عليّ وعلى أمثالي، فما هو معنى أن يتم تدمير دبابة عسكرية إسرائيلية في «جنين» أو على مشارف «القدس»! وما معنى أن يتم إسقاط طائرة للعدو فوق جبال «الخليل»، فهذه مدن قرأت عنها في الكتب، ولم أرها. كنت أود أن أسمع خبراً عن القذائف الثلاث التي أطلقت قريباً منّا نحو «تل أبيب»، ماذا حدث هناك؟ سمعت فقط أن المدفعية «دكت» تل أبيب «دكاً»، ولم أعرف أن هذا الدك كان من قبل طاقم الدبابة التي انقلبت قبل ساعات.

أدار أبي مفتاح المذياع من محطة إلى أخرى، استمعنا لكل الإذاعات العربية: السورية والأردنية والمصرية، واستمعنا لإذاعة لندن، وكان أبي يحب أن يسمع هذه كثيراً، لكني لم أكن أفهم غضبه حين ينهي المذيع قراءته لنشرة الأخبار، كان يقول: يلعن أبوك، ما أشطرك في الحكي! كم استغربت موقفه هذا. فهو يقبل على الأخبار بنهم، يلصق «المذياع» بأذنه، ويصيح فينا أن نصمت إذا أصدرنا أية ضجة، يهز رأسه أحياناً موافقاً، ويهزه أحياناً أخرى معارضاً، يقفل عينيه ويستغرق في سماع نشرة الأخبار، «يتصنم» وهو يدقق فيما يقوله المذيع، يزم شفتيه، يرفع رأسه مرات، ويخفضه مرات أخرى، لكنه في كل مرة يسب الإذاعة ويلعن المذيع. سررت لأنه توقف عن

توجيه الأسئلة لي في محاولة منه لدمجي في الحدث، كنت أخشى أن يسأل ولا أستطيع الإجابة. كان يسألني: ما معنى خطوط الهدنة؟ من هم الذين صنعوا طائرة «الميراج»؟ ما معنى «دولي»؟ ما أسماء الصواريخ العربية؟ وأسئلة أخرى كثيرة، لم أكن أعرف معظمها. أكثر ما كان يحرجني هو أن يسألني أمام أصدقائه، لذلك كنت أحاول الابتعاد عن مجلسهم بقدر ما أستطيع. سررت لأنه توقف عن توجيه أسئلته المعهودة، فالوقت وقت حرب، ولا مجال لتعليمي الآن.

مر الوقت بطيئاً قبل أن أنام، فالشمس طلعت عالياً في السماء، و«سقائف الزينكو» ازدادت حرارتها، وحديث الرجال تحت «العريشة» لا يترك مجالا للنوم. أحاديثهم تدور حول التمني، فهؤلاء كلهم من اللاجئين الذين طردوا من ديارهم قبل حوالي عشرين عاماً. تمنوا أن يرجعوا إلى قراهم: «بيت نبالا»، و «دير طريف»،«العباسية»، و«طيرة دندن»، و«السافرية»، و«البرج»، و«الحديثة». كل واحد فيهم يصور بلدته على أنها مدينة بأكملها، وكل يصور قريته على أنها الجنة بعينها، ولكم وددت أن أرى هذه الجنة. أملت لو ولدت قبل الهجرة لأحلم مثلما يحلمون بالعودة إليها ثانية، أو لو كنت عجوزاً قاوم الهجرة وبقي هناك، ويزور الجنة بين وقت وآخر. كم تمنيت أن أطير على ظهر طائر «الرخ»، يحط بي هناك، وأنعم بما وهبه الله لنا، أو أن أتحول إلى طائر أحلق فوق القرية، وأفتش عن الذين بقوا هناك، أقف على شبابيك الغرف التي يسكنونها، وأغني لهم مثلما تغني العصافير لنا ونحن في الحقول، واختار أن أبقى معهم أو أن يأتوا معي. تخيلت كل ذلك، فقصص كثيرة سمعت بها عن أناس يملكون قوة خارقة، يخترقون بها الحيطان والليل والحدود، ويتغلبون على العدو.

حاولت أن أرسم صورة طريق العودة إلى قريتنا. قال أبي: لن نحمل معنا شيئاً فالخير كله هناك، ولن أنتظر موسم التين والزيتون، ولن أنتظر حصاد القمح والشعير، ولن أبالي بثمار «المقثاة»، سأحمل حالي وأعود. قال له «عمي إبراهيم»: لن يسمحوا لنا بالعودة مباشرة، فالمنطقة كلها ألغام،

زرعها العدو لاصطياد «المتسللين». وأورد عدة أسماء لأناس استشهدوا أو جرحوا وسجنوا بسبب هذه الألغام. وقال آخرون: إن شاء الله نعود، نحن سنزيل الألغام، ونحن سنعيد بناء البيوت التي دمرت، وسنزرع الأشجار من جديد. تخيلت طريق العودة، سنبدأ المسير من هنا، من «بيت اللو»، ومنها إلى «دير عمار»، ولا أعرف إن كنا سنسلك طريق المدرسة التي نتعلم فيها، أو سنذهب في طريق آخر، ربما نسير في الطريق المعبد المؤدي إلى «عين أيوب»، ومن ثم سننحرف غرباً، وهناك بعد المرور بقريتين أو ثلاث تكون «بيت نبالا». كل ما أعلمه أن قريتنا تقع خلف الجبال هناك. هل سنسلك الجبل أم أن هناك طريقاً معبداً؟! هل سنذهب ماشين أم ستقلنا عربة! هل سنذهب جماعة أم ستذهب كل عائلة وحدها؟! هل سنحمل بعض الأغراض مثل الفراش والغذاء أم سنسير بأجسادنا دون أن نحمل شيئاً؟! خيارات عديدة وقضايا مختلفة طافت في مخيلتي دون أن أجد لها إجابة. لمت أبي أنه سكن «بيت اللو» مما سيجهدنا ونحن عائدون، سنسير كل هذه المسافة حتى نصل، فنحن نشعر بالتعب ونحن نذهب إلى المدرسة في «دير عمار»، فكيف إذا كانت المسافة أطول! سمعت من أبي أن قريتنا تقع على الحدود، ويفصل الجزء الشرقي من أراضيها بين فلسطين المحتلة وفلسطين غير المحتلة، حتى أنهم حرثوا الأرض القريبة من «بدرس» وزرعوها وحصدوها على مدار سنتين بعد احتلالها، فعلوا ذلك قبل أن تتنبه «إسرائيل» لما يفعلونه وتثبت حاجزاً سلكياً قرب حدودها. سمعت أن هناك قرى مجاورة لنا، هناك «شقبا» و«دير قديس» و «قبيا» و «بدرس» وغيرها، فلماذا لم يسكن أبي هناك! لماذا لم يختر إحدى هذه القرى مأوى له! لو فعل ذلك لكنت الآن على أعتابها، ولا يكلفنا الانتقال إلى أراضيها سوى دقائق معدودة، سنقص الأسلاك الشائكة فإذا نحن هناك في أرض قريتنا، وأهم من كل ذلك، سألقي تحية الصباح عليها في أول النهار وتحية المساء في آخره، وسأسلم عليها كلما خرجت ودخلت، وسأتسلل عبر الأسلاك وأجلس في أراضيها، أشم رائحتها وألتقط بعض أغصان «الميرمية» و «الزعتر» و

«السيسعة» و «الجلثون» وسآكل من تينها القريب وصبرها. لو كنا هناك، لعرفت كيف تكون الجنة دون أن أبذل جهداً في تصورها. حاولت أن أتصور القرية ونحن مقبلون على أرضها. أظن أني لا أحتاج دليلاً ليقول لي هذه «بيت نبالا»، فأنا سأعرفها من خلال بساتينها، ومن خلال طيورها، ومن خلال ينابيعها. يكفي أن أرى اللون الأخضر يغطي الأرض، فأصرخ إن هذه هي قريتنا، أما بيتنا فلن أجده، سأرى بدلاً من ذلك حجارة ملقاة على الأرض، وتراباً بني اللون قاتماً، أقرب إلى اللون الأسود دليل خصوبته، وسأرى أشجار الكينا والتين والسدر، وأهم من كل ذلك سنقابل الذين بقوا هناك لو بقي منهم أحياء، وربما سنقابل آخرين من قرى مجاورة بقوا هناك. سأعرف «رأس الأقرع» من قرعته، وسأعرف «قرنة الأرانب» من حدة زاويتها، وسأعرف «جبل النقارة» و «العديسية» وسأعرف «الوادي الشامي» ووادي «كريكعة» وكل المواقع التي ذكروها لي سابقاً. على الأقل لا أحتاج سوى تحديد المواقع، أما الأسماء فأحفظها جيداً، وبذلك أكون قد اجتزت معرفة نصف المعلومات.

طاف في مخيلتي منظر الجنديين الشهيدين اللذين انتشلوا جثتيهما من تحت الدبابة، قالوا إنهم اختنقوا بِ «الشادر» الذي كان يغطيها، وقالوا إن هول الصدمة والارتطام بالأرض خضهما، فاستشهدا. جاءت سيارة جيش من حرش «النبي صالح» وأخذتهما ليدفنا في مكان آخر، أو تسلم جثتاهما لأهاليهما. تهامس الكبار حول أمور أخرى تتعلق بجثتي الشهيدين، حاولت وأقراني أن نعرف، لكنهم كانوا يزجروننا، ويطلبون إلينا أن نبتعد، وحين نفعل يستأنفون الحديث. ما الذي يتحدثون عنه؟ ما هو السر الذي يخص الكبار ولا يخص أمثالي؟ ناديت «حامد» وأخبرته بأمر السر علّه يعرفه. غاب هو الآخر بين الرجال، حاول التقاط بعض ما قيل، فزجروه، وأخبرني أنه لم يهتد إلى شيء واضح تماماً، قال: ربما كان يتعلق بجثة أحد الجنديين.

طاف في مخيلتي منظر الدبابة التي أوقعها المدفع. منظرها كان محزناً، فكيف يستطيع الابن أن يوقع أمه! وكيف يكون شعور الأم وهي لا تستطيع

الحراك، وابنها ممدد بجانبها! لقد كابدت أيتها الدبابة وأنت تتسلقين المنحدر، وعانيت وأنت تسحبين هذا المدفع كل هذه المسافة الطويلة، ثم وقعت صريعة، ليس فيك أية نواة للحركة، أنت الآن بلا حول ولا قوة. يا لهذا المدفع ذي الماسورة الطويلة! كم أنت قوي! أنت ألقيت ثلاث قذائف على «تل أبيب»، «دككتها دكاً»، ولا بد أنك قتلت من الأعداء ما قتلت، لكنك في عودتك قتلت اثنين من الجنود الذين نقلوك إلى هناك، وعادوا بك إلى هنا. لماذا فعلت ذلك؟ أكنت تود أن تبقى هناك؟ أكنت تود أن تقوم بمهمتك كما يقوم بها كل الرجال والنساء في هذه الحياة؟ أأنت أكبر مني سناً فتعرف مهمتك، بينما لا أزال أنا أصنع مستقبلي الذي سأكون؟ هل انتهت مهمتك؟ أكان الصعود بالفعل أهون عليك من النزول؟ أأنت غير الماء؟ الماء يحب السهول، يحب الوادي، يحب البحر، ويسعى إليها، لماذا صعدت المنحدر ورفضت هبوطه؟ أتحب الذهاب إلى الغرب، وتكره الذهاب إلى الشرق؟ هل الشرق يعني لك كما يعني لنا بداية يوم؟ وهل يعني الغرب نهايته؟ أتحب نهايات الأشياء ولا تحب بداياتها؟ أتحب النتائج ولا تعنى بطريقة الوصول إليها؟ هل الشرق يعني التهجير، والغرب يعني العودة؟ أتحب أن تسلك الطرق المستقيمة ولا تحب الطرق المنحنية؟ هل تكره كل الانحناءات؟ سمعت أن الخطوط المستقيمة هي طرق الشياطين، سمعت أن الالتزام بحرفية النصوص يدمر صاحبها، لهذا رفض إبليس السجود لآدم، قَبْلَ أن يسجد لله، ورَفَضَ أن تخضع النار للطين، لذلك لعنه الله وتركه يعيث في الأرض فساداً إلى يوم الدين، ليكشف لله من هو المؤمن من بني آدم ومن هو الكافر. من هم أتباع الله؟ ومن هم أتباع الشياطين؟ سمعت أن هذا هو السبب في أن الناس لا يكتفون في بناء بيوتهم بالخطوط المستقيمة، فلا يكتفون بالجدران، بل يبنون الأقواس على أبواب بيوتهم وشبابيكها، ويبنون القبة بشكل منحن، ذلك غطاء البيت الذي يعلوه، الملائكة تأتي من فوق، أما الشياطين فتأتي من تحت ومن فوق ومن كل جانب، فإذا أتت من السماء وجدت القبة فهربت، وإذا أتت من تحت سطح الأرض وجدت القبة من الداخل فهربت، وإذا قررت أن تأتي من

الجوانب ستجد أقواس الشبابيك أو الباب فتهرب، تحوم حول جدران البيت المستقيمة، ولا تستطيع الدخول من مداخله. أما ما بني حديثاً من البيوت فهي تجلب الشياطين، تجلب «ثبر» و «الأعور» و «مبسوط» و «داسم» و «زلنبور»، كلها شياطين بمهام محددة. البيوت الحديثة تجذب الشياطين، حتى «سقائف الزينكو» التي نعيش فيها تجلب الشياطين. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم. تساءلت: ولكن بيوت أهالي قريتنا كلها فيها أقواس وتغطيها القباب، قليلة هي البيوت الحديثة التي تم بناؤها هناك كما قال أبي، فلماذا جاءتها الشياطين وطردتنا؟ وإذا كان كذلك، لماذا تكون حوائط السقائف بخطوط مستقيمة؟ لا أعرف الإجابة، لكني أعرف أن الشياطين توجد في كل مكان بما في ذلك عقولنا التي ندرك بها الأشياء. كنت أستغرب حين يقول لنا الأستاذ أو أي شخص آخر: حكّموا عقولكم، وستصلون إلى الحل. كيف نفعل ذلك، هل قصد أن نبعد الشيطان والوسواس من عقولنا؟! كيف نحكّم هذه العقول وقد تنجست بأفعال الشياطين؟!

رأيت مرة مجموعة من الأولاد يلعبون لعبة غريبة، يحنون رؤوسهم إلى فوق ويطلقون قبلة، ثم يديرونها إلى الأرض ويبصقون، كانوا يكررون ذلك بصورة مستمرة. سألتهم عن ذلك فقالوا: نحن نحب الله وملائكته، ولا نحب الشياطين. ولأني أحببت ما يحبون وكرهت ما يكرهون، فعلت مثلهم حتى صرت على وشك فقدان توازني، لكني تساءلت بيني وبين نفسي: هل يجب أن أفعل ذلك حتى أعبر عن مشاعري! لماذا يجب أن يجف حلقي من أجل شيطان! لماذا نبصق على الأرض ونحن ندفن موتانا فيها ونأكل من زرعها! لماذا يبصقون على الأرض والشياطين تأتينا من كل جانب! لماذا نقول «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» ولا نشتمه! أليس ذلك محاولة لاتقاء شره وليس دعوة لمواجهته! أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

أنت أيها المدفع مستدير في شكلك الداخلي، لكنك مستقيم في شكلك من الخارج. أنت تجمع بين الاستقامة والانحناء، أنت شيطان أيها المدفع،

وأنت ملاك في الوقت نفسه، ربما مثلنا تماماً. أنت ملاك في انحناءاتك، وأنت شيطان حين تلقي بما في جوفك. أنت لا تحتمل أن تبقي على قذيفة داخلك، تتقيؤها حال وضعها فيك. الجنود يضعون القذيفة من مؤخرتك، لتلقي بها من مقدمتك، هكذا يحتالون عليك. أنت تود أن تبقى فارغاً، فعاليتك في أنك لا تحتفظ بما يضعونه فيك. القذيفة بالنسبة لك مثل السم، يحاول أن يفعل فعله، فتقوم معدتك بمجموعة إفرازات لتدفعها إلى الخارج. القذيفة بالنسبة لك مثل الحمل، لكن فترته قصيرة، فما أن تحمل تلد. لو كان البشر مثلك، فسيكون لي أخوة كثيرون وأخوات كثيرات، لامتلأت القرية بإخوان لي، لصرنا بعدد النمل الذي حاولت البحث عن ملكته، ولانتصرنا على عدونا واسترجعنا قريتنا. غريب أنت أيها المدفع، غريب أنت أيها الشيطان، غريب أنت أيها الملاك، نحن لا نزال في حاجة إليك. لماذا أنت هكذا يا واهب الحياة والموت معاً؟ تعلقت روحي في ماسورتك، وتخلصت من الذين قادوك. آه أيها المدفع كم أنت متناقض!

طاف في مخيلتي منظر الدبابة وهي تنام على جانبها، كان المدفع قد «بطحها»، أصبحت مثل شاة معدة للذبح. هكذا يفعل الجزارون، يمسكون الشاة من رجليها، ويبطحونها، يمسكون رأسها كيلا يتحرك، فَ «تفعفط» بأطرافها، وهكذا كانت الدبابة. قال لي «حامد» صباح اليوم:

– أبي ساق دبابة «الشقيري»، فأبي يستطيع سياقة كل الدبابات.

– وهل دبابة «الشقيري» تختلف عن هذه التي رأيناها؟

– نعم دبابة «الشقيري»، ليس لها جوانب، هي لا تنقلب.

استغربت الأمر، وسألته:

– كيف يكون ذلك؟

– دبابة «الشقيري» لها عجلات من كل الجوانب، من فوق ومن تحت، ومن اليمين ومن اليسار، والمحرك موصول بكل العجلات، وإذا ما قُلبت إلى جهة ما، تعمل العجلات التي على الأرض فقط، المحرك يتصل بها مباشرة، ولا تتوقف.

استغربت ما قاله، وسألت:

– وماذا يحدث للجنود الذين في الداخل؟ ألا ينقلبون معها حين تنقلب؟ هل يسوقونها وأرجلهم فوق ورؤوسهم تحت؟

– لا، بل تنقلب مقاعدهم تجاه الأرض، تدور كما تدور القطة حين نلقيها في الهواء. صانعو مثل هذه الدبابات يصنعونها على شكل قطة، لها مخالب تثبتها في الأرض، ولها أسنان تعض كل من يقترب منها، وسريعة كالقطة.

تساءلت:

– لكننا نستطيع قتل القطة!

– صحيح، لكن من الصعب أن تقتلها وأنت قريب منها، هي ستدافع عن نفسها، ربما تقتلها بحجر أو بعصا، بأية أداة طويلة، لكن لو فعلت ذلك عن قرب، فستعاقبك. ثم، هل رأيت قطة ميتة؟

– نعم، كثيرة هي القطط التي رأيتها على الشارع وقد دهستها عربة.

– صحيح، لكن القطة لها سبع أرواح، تموت فقط في السابعة، أما قبلها، فتظل حية.

عجبت لما قاله «حامد»، واستكبرت أباه الذي ساق دبابة «الشقيري»، وتساءلت: لماذا دبابة «الشقيري» هي التي فيها كل تلك الميزات؟! لماذا لا يصنعون دبابات كلها مثل القطط؟ هل هي ثمينة إلى هذه الدرجة التي لا يستطيعون تسليمها للجنود الأربعة الذين دكوا «تل أبيب»، أم أنها اخترعت حديثاً، وينتظرون التخلص من القديمة لتحل الجديدة مكانها؟! أعجبت بالقطة، وتمنيت أن أفعل مثلها، هذا يمنعني من السقوط على إليتي أو ظهري أو قدمي، من الصعب أن أصاب بكسر لو فعلت مثلها، ورحت أتخيل كيف تفعل القطة، وتمنيت أن أصبح قطاً. القط فيه ميزات لا امتلكها، فهو يعيش سبع مرات وأنا أعيش مرة واحدة. والقط يقلب جسده في الهواء ليحمي نفسه وأنا لا أستطيع، إلا أني لا أحبه، إنه يطارد الفئران والأفاعي ويأكلها ويخاف من الكلاب، ويقضي وقتاً على «المزابل». أحببته من جهة وكرهته من

جهة أخرى، بالضبط كما تناقضت مشاعري تجاه هذا المدفع الذي دكّ «تل أبيب» ثم قتل اثنين من طاقمه. تذكرت ما قاله «حامد» عن دبابة «الشقيري» وخشيت أن أسأل أحداً عن الموقع الذي هي فيه الآن، فهم بالتأكيد لا يعرفون، وإذا عرفوا فسيبقى الأمر سراً لئلا ينكشف موقعها، أنا لا أحب أن يخبروني بالسر لو كانوا يعرفونه، أنا لا أحب الاحتفاظ بالأسرار، الأسرار تؤرقني، تشغلني، تجعلني أكثر حذراً لأظل محافظاً عليها، وإذا سئلت عنها، سأصاب بالتوتر، سيفضح وجهي سري، سأتلعثم كلما جاء ذكر حدث أو خبر ما له علاقة بما احتفظ به، فإذا كنت أفشي سري لأحد الأصدقاء، فهل أستطيع البوح به لكل الأصدقاء؟ ثم ما قيمة المعلومات التي أعرفها ولا استخدمها؟ أنا لا أريد معرفتها، ولا أريد الاحتفاظ بها. لا بد أن دبابة «الشقيري» لا تستخدم الشوارع والطرق المعبدة، فهي لا يهمها أين تسير، تستطيع أن تتسلق الجبال، وتسير في الأودية، وتقطع السهول ولا تنقلب، وإذا فعلت لا يصاب أحد من طاقمها بأذى، إذا لم تكشفها طائرات العدو، فستظل تضربه وتضربه حتى تقضي عليه. هي تفعل ذلك الآن بالتأكيد.

طاف في مخيلتي «رمى» الحجارة الذي انقلب عنده المدفع وسحب معه الدبابة. من الذي بناه؟ الإجابة عندي هي أجدادنا، أهالي «بيت اللو»، أما أن يكونوا قد بنوه تحت إشراف مهندس أم لا فلا أعرف. وأهالي هذه القرية إما ينتمون إلى الفنانين كما يدل الاسم على اللؤلؤ أو يدل على الإيمان كما يدل الاسم على الله، وفي كلتا الحالتين لا بد لمن يتقن الفن، ويعرف الجمال، أو يؤمن بالله ويعبده، أن يعرف كيف يبني السلاسل بشكل قوي وجميل، لكن لم يخطر ببالهم أن تخذلهم السلسلة كما جرى اليوم. هل كان بالإمكان أن تكون أقوى من ذلك! أنا أعرف حجارتها جيداً، فقد كنت أتسابق مع زملائي للقفز منها إلى الأرض الترابية، حجارتها كانت كبيرة، يصغر حجمها كلما ارتفعت السلسلة، السلسلة كانت مائلة تجاه الشارع، أخبرنا الشباب الأكبر سناً أنها بنيت على طريقة بناء السدود لتحتمل مزيداً من الضغط، احتملت ضغط العربات الصغيرة، وضغط الشاحنات الكبيرة، لكنها لم

تحتمل ضغط الدبابة والمدفع. إذاً لم يصنع هذا الطريق لها، ربما لم يخطر ببال المهندس، إن كان هناك يومها مهندس، أن مثل هذه الدبابة ستمر من هنا، فوقعت في المصيدة، هل كان بالإمكان أن يكون الشارع أوسع! إن ذلك يحتاج إلى عمل أكبر بالجرافات في الجهة العليا من الشارع، لكن البيت الذي يعلوه لا يبتعد عنه كثيراً، فكلما اتسع الشارع أخذ من الأرض الزراعية التي حوله، والناس هنا يحبون الزراعة، ويحبون الأرض، لكن لو كانوا يعلمون أن خطراً مثل هذا سيحدث، لتفادوه بالتبرع بمزيد من الأرض. لماذا هذا الطريق الخطر! ليس خطراً فقط على الدبابة والمدفع وإنما أيضاً على السيارات الأخرى. لماذا لم يعبّدوا الطريق الترابي الذي سلكته الدبابة في صعودها! إنه أقصر مسافة وأكثر اتساعاً.

سمعت «عمي إبراهيم» الذي خبر الطرق في بلادنا يقول إن الإنجليز اتبعوا الطرق الترابية التي كنا نستخدمها على الدواب. هذه الطرق هندسها الحمار. اعتقدت أنه يسب أحداً من الناس أو أحد المشرفين على بناء الطرق، وأنا لا أعرف من الذي يقصده، ربما يكون هذا «الحمار» قائداً إنجليزيا، كانت تصرفاته تدل على عدم ذكائه، فسماه الناس حماراً، إلا أنه أكمل: على أكتاف الحمير بنيت حضارة بلادنا، كانت هي وسائل النقل الأساسية، ورغم وجود البغال إلا أنها لم تكن هي السائدة، الحمير هي السائدة، ثم ما البغال إلا أبناء الحمير. لا تنسوا أن هذه الطرق التي نراها هي بالأصل طرق عسكرية، تمر من المدن والقرى لأسباب عسكرية خاصة في هذه الأرض المقدسة التي لن ينتهي الصراع فيها إلى يوم الدين. وُجدت الطرق لمواجهة الآخرين ولاعتقال المواطنين، كانت الطرق التي يسلكها الناس معروفة ومحددة، لهذا كان هناك قطاع طرق، قالوا قطاع طرق، ولم يقولوا قطاع جبال أو أودية. الطرق صنعتها الحمير، والمدفع يشبه الحمار، لهذا مر فيها، لكن الحمار يحرن أحياناً، يرفس، «يجاكر» صاحبه، يشده صاحبه في طريق وهو يريد أن يسلك طريقاً أخرى، وإذا ما أصرّ صاحبه، فإن الحمار يرفس ويقلب حمولته، وهكذا فعل المدفع هذه الليلة، قلب حمولته

ورفس الجنديين اللذين في جوف الدبابة، ووجه لطمة لكل سكان قرية «بيت اللو». سلك الطريق الترابي في الذهاب ورفض الطريق المعبد في العودة. ربما يعرف الحمار طريقه جيداً، ولا يحب أن يبدله، هو يستطيع تقدير حمولته، وتقدير طريقه الأفضل، هكذا هو الماء، الماء لا ينتظر قراراً من أحد، يسير في الطريق الأسهل دون أن يبذل جهداً، لا يستطيع أحد أن يطلب إليه المرور في هذا الطريق دون غيره، وحتى يروّضه المزارعون، يحتالون عليه، يقومون بتسهيل الطريق أمامه، لكن الفرق بين الماء والحمار، أن الماء يكون طريقه نزولاً دائما، لا يعرف الصعود إلا حين يتحول إلى شيء آخر، يتحول إلى بخار ماء، يصبح غازاً، يصعد إلى السماء كما تصعد الروح، يصعد إلى المكان الآخر، إلى العالم الآخر، حيث يتجمع على شكل غيوم، تدور في السماء، وتلون خيمة حياتنا باللون الأبيض، وتقرر أن تنزل مرة أخرى إلى عالمنا، إلى أرضنا، فنشرب منها ونسقي مزروعاتنا. يا رب سهّل طريق حميرنا، وسهل طريق مائنا، وسهل طريقنا، وأرجعنا إلى بلادنا سالمين.

سمعت أحاديث الرجال مع أبي وأنا أحاول النوم، كانوا يجلسون تحت «العريشة»، والنقاش بينهم بدت عليه الحدة، انقسموا فريقين، كل فريق يحاول الدفاع عن وجهة نظره، فالفريق الأول يدعي أن «الكوربة» ليست من صنع الحمار بل هو الطريق الترابي، أما الفريق الثاني فيدعي أن «الكوربة» من صنع الحمار. قال «عمي إبراهيم» إن المختار يعرف ذلك، وهو الذي أكد أن الإنجليز لم يتبعوا الحمار في كل مرة، رفضوا طرقاً وأقاموا بدلاً منها طرقاً أخرى، ومنها «الكوربة». احتج الفريق الثاني على ذلك مدعياً أن المختار لا يذكر متى عبدوا هذه الطرق، فهي موجودة قبله، وأن الإنجليز لم يخرجوا على هذه القاعدة. صاح «عمي إبراهيم» أن هذا الطريق موجود أصلاً قبل الإنجليز، وما فعلوه هو أنهم رصفوه برصفتهم المعهودة. علت أصواتهم، فإذا رجل من أهالي «بيت اللو» يحسم الأمر ويقول: ألا ترون أن الحمير تستخدم الطريق الترابي صعوداً ونزولاً حتى اليوم؟ ألا ترون أنه ما زال على حاله، ولم يستخدمه أحد للبناء فيه؟ إن الطرق الترابية، غير المعبدة

هي الطرق الشعبية، طرق الناس، أما الطرق المعبدة فهي الطرق الرسمية، طرق الحكومات. هذا الطريق الترابي طريق الحمير، أما الطريق المعبد الذي نسميه «الكوربة» فقد كان طريق الحمير أيضاً، ولكنه لا يخرج الواحد من القرية، بل يؤدي به إلى الحقول الشرقية منها، جاء الإنجليز وداروا هذه الدورة تجنباً للنزول الحاد في الطريق الترابي. هكذا هو الأمر إذن، الحمير تعرف طريقها، وهي تختار الطريق الأسهل، لو عبدوا هذا الطريق لما حدث هذا الانقلاب، ولما كانت «الكوربة». الإنجليز هم الذين عصوا الحمار وطريقه، ونحن الذين ندفع الثمن. أعتقد أن القادة العسكريين سيترددون في إرسال قوة أخرى، دبابة أخرى، لتدك تل أبيب وما حولها بمزيد من القذائف، فانقلاب الدبابة عطّل كل شيء، وألهى الناس بكيفية الخروج من هذه المحنة، لن نرى بعد الآن أية دبابة أو مدفع، فهذا الشارع انتهى دوره في الحرب، و «بيت اللو» صارت خارج نطاقها، لكني فكرت أن هؤلاء القادة يعرفون كل القرى وكل المناطق، ولا بد أنهم يستخدمون القرى الأخرى لدك «تل أبيب»، ولا بد أن القذائف السبع الأخرى قد ألقيت عليها من مواقع أخرى، فهذا المدفع النائم ليس هو الوحيد الذي يملكه الجيش، وهذه الدبابة إن سقطت لا بد أن هناك غيرها قائمة وتجوب طول البلاد وعرضها.

تجمع رجال القرية عصراً، أحضروا الحبال. كل من لديه حبل أحضره معه، منها الغليظ ومنها الرفيع. قام الرجال بجدل الحبال الرفيعة لتشكل واحداً غليظاً، وهناك من أحضر بعض الجنازير الحديدية. وجد الرجال حبالاً أخرى كان يحتفظ بها الجنود داخل الدبابة. اجتمعوا على «الكوربة»، اجتمعوا عند الدبابة، فكوا المربط الذي يوصل المدفع بالدبابة، استغرق ذلك وقتاً، استخدموا فيه «الشواكيش» و«المهدات». فعل ذلك الرجال الأقوياء خاصة أولئك الذين عملوا في المحاجر والكسارات، وساعدهم الشباب الأقوياء ذوو العضلات. كان «الوتد»؛ هكذا سموا القطعة الحديدية التي على شكل مسمار كبير تربط الذراع الأمامي للمدفع بالدبابة؛ كان هذا «الوتد» مثنياً، كان معوجاً بحيث يصعب إخراجه بسهولة. كان سقوط المدفع الثقيل ومن

ثم الدبابة الثقيلة كافيين لثني «الوتد». لم يعد الطرق من الجهة السفلية على طرف الوتد كافياً لإخراجه من الفتحات الثلاث، وكان من الصعب على الرجال هز المدفع أو الدبابة من مكانيهما لتسهيل مروره. اقترب «جامع» من الرجال الذين يعملون، وطلب إليهم أن يفسحوا له مجالاً للعمل، قال إنه يعرف كيف يخرجه. لم يسمح له الآخرون بأن يدلي بدلوه حتى بالكلام، وانسحب إلى مكان بعيد يراقب ما يحدث.

اقترح قائد الدبابة أن يأتوا بماسورة حديدية طويلة، يثبتونها عند الطرف الآخر للوتد، ويضربون عليها حتى تمتلكه، يدخل الوتد في فتحتها، فتصبح جزءاً منه. فعلوا كما أمروا، فتفسخت أطرافها الأمامية، وفشلت التجربة. طُلب إليهم أن يأتوا بوتد آخر يستخدمونه في المحاجر، وأن يجعلوا الماسورة حلقة وصل بين الوتدين. جربوا ذلك فإذا القطع الثلاث تتماسك مع بعضها بعضاً. فرح القائد لهذا الإنجاز، وفرح الناس لفرحته، فهو القائد، وهو يعرف الكثير من أمور الدبابة بما في ذلك صيانتها. حمل الرجال «المهدات» من جديد وراحوا يضربون بالتناوب، ضربة أولى بهدوء، وواحدة أخرى خفيفة، ويدققون النظر في النتيجة، وضربة ثالثة ليعرفوا إن كان «الوتد» يسير في الاتجاه الذي فيه يضربون، ثم أخرى أكثر شدة، وأخرى وأخرى، فإذا الوتد يتحرك من مكانه، يتحرك في الجهة الأخرى، يتراجع، يبرز رأسه بشكل أكثر وضوحاً، يرفع رأسه المفلطح ويطول، ويتزحزح.

صاح قائد الدبابة في الناس أن يبتعدوا قليلاً، فالأمر يمكن أن يشكل خطراً على القريبين من الدبابة والمدفع. أمرهم بأن يبتعدوا، فخروج الوتد من مكانه سيخلخل كلاً من القطعتين الثقيلتين، ستهتز كل منهما، وتبحث عن حالة سكون جديدة، وفي طريقيهما يمكن أن تقتلا بشراً. يمكن أن تسحقا أي إنسان. ابتعد الجمع، وطلب إلى رجل واحد فقط أن يقف في زاوية محددة من موقع الوتد، وأن يضرب ضربته، ويتراجع بأقصى سرعة إلى مكان بعيد نسبياً، يبتعد إلى مكان قدره القائد على أنه آمن. فعلها الرجل، وحمل «المهدة»، وابتعد. ركض بسرعة إلى المكان الذي قدره القائد

وهو يحمل «المهدة» الثقيلة. تدّخل القائد مرة أخرى، واقترح أن يضرب ضربته، ويلقي «المهدة» تجاه ارتدادها ثم يهرب من المكان. وهكذا فعل، فعل ذلك بحركات كانت أشبه بالرقص غير المنتظم، فعل ذلك وهو يرى ويرى الآخرون الخطر الذي يتهدده، لكنه بدا أكثر اتزاناً وثقة وهو يضرب الضربة الثالثة والرابعة، فهو صاحب محجر، ويعرف كيف يستخدم «المهدة»، لولا أن هذا الرجل الذي يأمره هو القائد، وهو الذي فقد اثنين من جنوده، لأحرجه أمام الناس، وهو لا يريد ذلك، الضرب بـ«المهدة» لا يستلزم «النطنطة»، يجب أن تكون واثقاً، تختار الموقع المناسب وتضرب، وتبقي عليها ملتصقة بالمسمار أطول مدة ممكنة، كلما زاد الزمن زاد الدفع، وكلما زادت القوة زاد الدفع، وما يفعله هذا الرجل هو أن لا يؤثر أحد هذين العاملين على الآخر، فإذا زاد القوة ارتدت «المهدة» سريعاً، فقل الزمن، فهو وغيره أقل قدرة على منع ارتدادها حين تكون القوة كبيرة، ومن أجل أن يصبح الزمن كبيراً لا بد أن يقلل من قوة ضربته، لذلك هو يحاول أن يجمع بين هذين العاملين، هذا ما درسناه في كتاب العلوم. ليست هذه المرة الوحيدة التي يمسك فيها «مهدة»، فهو الخبير بذلك، كثيرة هي المرات التي وقف فيها على حافة صخرة، وراح يدق أزاميل لتقع تلك القطعة التي يريد دون غيرها، يختار الموقع الملائم، ويوازن بين قوة ضربته وزمن تلامسها بالازميل. كثيراً ما كان أصحاب المحاجر يستدعونه ليحفر لهم الغرز.

ضرب ضربة أخرى وأتبعها أخريات، بدأ المدفع يتزحزح، اهتز قليلاً. عاد وسكن. حذر القائد الناس مرة أخرى، وأمر رجلاً آخر بإكمال المهمة. كان الرجل أكثر ثقة بعد التجربة التي رآها أمامه، كان أكثر تصميماً وهو الذي كان بين المتفرجين قبل لحظات، فقلوب الناس معلقة بإزالة هذا «الوتد»، وعقول الناس معلقة بالمدفع والدبابة. ضرب بخفة كمحاولة لتدريب نفسه، لمواءمة حركات يديه، ونظرات عينيه، وثبات قدميه، وميلان جذعه، ثم زاد من قوته قليلاً دون أن يهرب من المكان، وضربة أخرى أشد قوة، ثم أخرى، فإذا القطعتان تنفصلان. ارتد المدفع إلى الوراء قليلاً ثم دفن رأسه في التراب، أما الدبابة فأطبقت على الأرض،

ونامت على جنبها كما ينام الإنسان. صفق الحاضرون، وعلت صيحات التكبير والتهليل. وقف «عمي إبراهيم» في الجهة الأخرى من الدبابة، كان يبدو مثل العملاق وهو يربط طرفي قمبازه تحت سرواله، تطلع عند حافة الدبابة، وراح يضرب كفاً بكف، سمع الجميع صوت ضربات يديه، فيده عريضة ثخينة، وضرباته واثقة رغم كبر سنه. تهدج صوته وهو يحاول أن يقول شيئاً لم يقله، ارتجّت شفتاه دون أن نسمع كلمة واحدة، وأخذ عدة شهقات متتالية، أدار وجهه بعيداً عنا، ومسح دموعاً سقطت رغماً عنه.

ربطوا الحبال بزوايا مختلفة من الدبابة، ومدوها إلى الجهة العليا من الشارع. كانت الحبال كثيرة بحيث لا يمكن عدها، وكان الرجال كثيرين بحيث لا يمكن إحصاؤهم، كانوا كل رجال القرية وكل شبابها، من أين جاء هؤلاء!. أمسكت كل مجموعة بحبل، كان الحبلان الجانبيان يشكلان زاوية بينهما، أشبه برقم سبعة مقصوص طرفه عند حافة الدبابة، أما الحبال التي بينهما فكانت أقرب إلى التوازي. غرز الرجال أرجلهم في الأرض، واتبعوا أوامر القائد:

– سأعد: واحد، اثنان، ثلاثة. حين تسمعون الرقم ثلاثة تشدون بكل قوتكم في الوقت نفسه، لا تضيعوا جهدكم في الشد طوال الوقت، هناك فقط لحظة واحدة تشدون فيها، وتتوقفون حين آمركم.

لم يعترض أحد على هذه الطريقة من العمل، كان همهم أن يعيدوا للدبابة هيبتها، ثم يفعلوا ذلك مع المدفع. كان همهم أن يوقفوا الدبابة على قدميها من جديد، لتستطيع السير ثانية، أن يعيدوا للجّارَّة وقفتها، وهي ستساعدهم في تعديل وضع المدفع. كان المدفع طريحاً، ماسورته غرزت في الأرض، وعجلاته تدور كلما لمسها طفل أو فتى. أما الدبابة فكانت مثل الذبيحة التي انتظرت السكين فلم يأتها، فاستسلمت لواقعها، منتظرة من يحييها من جديد. أصبح المدفع دون فعالية، مثل طفل استسلم للنوم بجانب أمه، أعياه التعب ونام. أصبحت الدبابة مثل الأم المريضة التي لا تستطيع إنقاذ نفسها، فكيف تفعل ذلك مع ابنها. وها هم الرجال قد أتوا لمساعدتها على النهوض.

أعاد القائد توزيع الناس على الحبال، لم يكونوا متساوين بالضبط، فالجهة المائلة أكثر ربطت بحبال أكثر، ووزع عليها رجال يبدو عليهم أنهم أكثر قوة. فرحت حين رأيت أبي في هذه الجهة، ذلك يعني أنه قوي، وإلا لما اختاره القائد هناك. لم يسمح للفتيان بالمشاركة، قال: هذه مهمة الكبار. أما الكبار جداً من الرجال فوقفوا عند أقرب مكان مشرف، يعطون نصائحهم تارة، ويصمتون تارة أخرى، يقفون مرة ويجلسون مرة أخرى، يدخنون، ويصمتون، ويكلمون بعضهم بعضاً، أو يكلم كل منهم نفسه، وبقي «عمي إبراهيم» في الجهة الأخرى منها. صاح القائد أن العمل قد بدأ. رفع يده اليمنى ثم صاح بصوت عالٍ: واحد، اثنان، ثلاثة. وأنزل يده علامة البدء. صاح الرجال: يا رب. وشدوا .. شدوا بكل قوة. اهتزت الدبابة قليلاً، فأمر القائد بالتوقف. ألقى ما يشبه الخطبة، قال: لا يجوز أن تشدوا في أوقات مختلفة، كل مجموعة تشد الحبل في الوقت نفسه، انظروا فقط إلى الأمام، لا تتحدثوا، لا يغرنكم هذا الوزن، تستطيعون أن تفعلوا ذلك بسهولة إذا صممتم على أن تنتهوا منه، يجب أن ننهي ذلك قبل غروب الشمس.

قام الرجال بإزالة الحجارة من تحت أقدامهم، ألقوا بالحجارة الصغيرة بعيداً، وحفروا بعض الحفر ليثبتوا أقدامهم فيها، ومنهم من أحضر حجارة كبيرة ليرتكزوا عليها، لكن القائد أمر بإزالتها بسبب الأخطار التي قد يتعرضون لها إذا ما وقعوا أرضاً، كل رجل سيقع على الحجر الذي وضعه جاره، عندها يمكن أن يقع رأسه عليه، ويجرح أو يكسر في وقت ليس فيه مستشفيات للمعالجة. تفهم الناس ذلك وألقوها بعيداً. قام بعض الرجال بربط الحبال حول أكتافهم أو حول وسطهم. تنبه القائد لذلك، وأمر بفكها، قال:

– يمكن أن ترتد الدبابة من جديد، وتسحب معها الرجال، وتلقيهم بعيداً. لا تفعلوا ذلك، نريد أن ننقذ الدبابة والمدفع، ولا نريد أن نفقد مزيداً من الرجال.

وافقوه، ووافقوا أيضاً على عمل مجموعة من العقد في كل حبل تمنع انزلاق أيديهم على الحبال.

صاح بهم القائد من جديد:

– استعدوا، ربما ستفعلون ذلك هذه المرة. واحد، اثنان، ثلاثة.

وصاح الرجال:

– الله أكبر.

وشدوا، وشدوا. تخلخلت الدبابة من مكانها، ارتفع جانبها الشمالي قليلاً، ارتفع أكثر، وتوقفت مكانها. دقق «عمي إبراهيم» النظر في الدبابة، كأنه يبحث عن شيء ضاع منه، أزال غطاء رأسه، عقاله وكوفيته، وانبطح أرضاً، وقلّب وجهه ذات اليمين وذات اليسار، أمسك عصا وقلّب التراب قرب حافتها السفلى، ثم وقف معتدلاً، وأشار بيده للقائد. هز القائد رأسه، وصاح في الرجال:

– توقفوا.

رجعت الدبابة كما كانت من قبل. أمرهم القائد بأن يستريحوا قليلاً. جلس الرجال على الأرض منهكين، تتعالى أنفاسهم وتنخفض، يشفطون الهواء شفطاً ثم يلفظونه إلى الخارج، يتفقدون أيديهم وقد اشتعلت حرارتها، ومنهم من شرب الماء وغسل يديه ووجهه. اقترب «عمي إبراهيم» ومعه كبار السن من القائد، واقترحوا عليه أمرين: أن يحفروا قليلا تحت أطراف عجلات الجنزير، فذلك يسهل انزلاقها، ومن ثم اعتدالها، وأن يقف بعض الرجال في الجهة السفلى من الدبابة، ويلقوا ببعض الحجارة الكبيرة تحت أي جزء يتم رفعه. اقتنع القائد بذلك، وأمر الفتيان بجمع المجارف والفؤوس من البلدة، وأمرهم بأن يجمعوا الحجارة ويضعوها ككومة عند الطرف السفلي منها. لم يمر وقت طويل على ذلك، أحضروا أدوات العمل، ووجدوا لهم طريقاً للمشاركة في هذه المهمة النبيلة، أما الرجال والشباب، فأمرهم القائد أن لا يبذلوا جهداً، أن يستريحوا بانتظار دورهم. حفروا ما يشبه الخندق تحت عجلاتها، كان بطول الدبابة، وبعرض عصا المجرفة، وبعمق ساق فتى من الفتيان. جمعوا الحجارة الكبيرة منها والصغيرة، ووضعوها عند الطرف الآخر منها.

اعتدل القائد في مكانه، أمر الرجال بالوقوف والإمساك بالحبال، والاستعداد، وأمر «عمي إبراهيم» بأن يشرف على ثلاثة رجال آخرين لإلقاء الحجارة تحت الدبابة، حذرهم من خطر الاقتراب منها، فهي تستطيع «هرس» أكبر رجل بسهولة. طالب الفتيان القائد بالمشاركة في شد الحبال، فأقنعهم بأن مشاركتهم ستكون بعد قليل، فطالبوه بمساعدة «عمي إبراهيم» في إلقاء الحجارة تحت الدبابة، فامتنع، ورفض أن يتجمعوا في الجهة الأخرى منها. اقترب «جامع» من القائد، وسأله إن كان يسمح له بمشاركة الرجال، صمت القائد قليلاً، ثم اقترح عليه أن يذهب إلى «عين البلد» ويأتي لهم بالماء، وأقنعه بأن الدور الذي يقوم به مهم كالدور الذي يقوم به الرجال الآخرون، فالنتيجة ستكون رفع الدبابة من وقعتها، وهذه المهمة تلزمها أدوار مختلفة، تتكامل المهام جميعها لتصب في الاتجاه نفسه، وإحضار الماء مثله مثل جمع الحجارة، ومثل حفر الخندق، ومثل شد الحبال. احتج «جامع» بسبب اعتقاده أن إحضار الماء هو دور للنساء، فرد عليه القائد أن النساء يقمن بدور أعظم مما يقوم به الرجال، يقمن على الاعتناء بالأطفال وحراسة البيوت وتحضير الطعام. جمع «عمي إبراهيم» الرجال الثلاثة، وهمس في آذانهم، وأشار بيده إلى الموقع الذي سيلقون فيه الحجارة كلما ارتفعت.

رفع القائد يده إلى أعلى، وصاح: واحد، اثنان، ثلاثة. شد الرجال، شدوا بكل قوتهم، وتعالت أنفاسهم، غطّت على كل صوت، وقطعت الصمت. انزلقت أقدام بعض منهم، فأعادوا حفر الأرض بأرجلهم، والانثناء بجذوعهم إلى الخلف. تململت الدبابة، وارتفعت قليلا من الجهة السفلية، وألقى الرجال الثلاثة الحجارة كما أمرهم «عمي إبراهيم»، انزلقت عجلاتها قليلاً نحو الخندق، طالت فترة شدهم، وبرزت شرايين أيديهم، وتعضّلت سواعدهم، واشرأبت عضلات أعناقهم، والرجال الثلاثة يلقون مزيداً من الحجارة تحت الدبابة، لكن القائد صاح فيهم أن يتوقفوا.

كانت عدة حبال قد قطعت، فأمر القائد بإعادة ربطها، وطلب أن يأتوا بحبال أخرى. كان أصحاب المحاجر والكسارات قد وجدوا حبالاً غليظة

جداً لا يمكن أن تقطع، ومنهم من أحضر حبالاً تستخدم في رفع المياه من الآبار العميقة. كثرت الحبال بحيث لم تعد هي العائق في رفع الدبابة واعتدال قوامها. لكن الرجال كانوا قد تعبوا إلى حد الإعياء، وكانت أيديهم قد حرقت وجرحت، ترى ذلك من خلال النفخ عليها بأفواههم. كانوا يفردونها في الهواء لتقل حرارتها، كانت تشتعل من الحرارة، وكانت أكفهم قد كشطت، فالحبال لم ترحمها، ولم ترحمهم، هدّت قواهم، بحيث لا يستطيعون الوقوف على أرجلهم. افترشوا الأرض وجلسوا، وأمروا الفتيان بتزوديهم ببعض الماء. شربوا منه، وعجنوا بعض التراب ليصبح طيناً، وفركوا فيه أيديهم. فعلوا مثلما كانت تفعل جداتنا وأمهاتنا مع الأطفال المصابين بالسماط. كانت أيديهم قد سمطت، ولا بد من معالجتها بالطين، الطين يمتص الحرارة، ويشكل طبقة عازلة عن الجو المحيط، وهو طاهر على كل حال ومقدس، يقسمون به، ويتيممون به في حالة نقص الماء، ويبنون به بيوتهم، ويغطون به بلاط موتاهم.

بدأت الشمس تختبئ وراء الجبال. اختفت ظلال الأشجار، واختفت ظلال الرجال معها. انغمست في ظلال الجبال، بل ذابت فيها، توحدت ببعضها بعضاً، طالت حتى غطت كل سطح أرض القرية، وأذن المؤذن لصلاة المغرب. صعد فوق تلة قريبة، ونادى للصلاة، نادى بصوت حزين، لكنه كان قوياً، بحيث تمكن من الوصول إلى كل شخص في القرية، وسمعنا مؤذنين من قرى أخرى، فالفضاء لا يعكره سوى صوت طائرة مرت، يبتعد الناس عن الدبابة قليلاً، ثم لا يلبثون أن يعودوا. تهيأ الرجال لجولة أخرى، ربما تكون الأخيرة في رفع الدبابة. وكل منهم يود أن ينتهي ذلك بسرعة عله يلحق بعائلته لينام في المغارة أو في الجبال.

كان «عمي إبراهيم» يحرك عصاه تحت الدبابة التي ارتفعت قليلاً، فإذا به يصرخ مرة واحدة: وحدوا الله. فوحدوه. أتي بمجرفة، وراح يجمع شيئاً من تحتها، كان هذا الشيء أشبه بقرص من الدم مجبول بالتراب، تتخلله قطع بيضاء. مزق طرف قمبازه، وفرده أرضاً، ووضع ذلك القرص هناك،

وصاح: هللوا. فهللوا. أسرع القائد نحوه، وحين رأى ذلك الشيء بكى، بكى بحرقة، أمسك به بعض الرجال، وطالبوه أن يوحد الله. لفّ «عمي إبراهيم» القرص، وضعه أمامه، تجمع الرجال وراءه، كبروا مثلما كبر، وصلّوا وهم واقفون. أعلن الرجال أن ذلك القرص هو رأس «مروان»، فجثته التي نقلوها في العربة العسكرية كانت دون رأس، يبدو أنه حاول القفز من الدبابة أثناء انقلابها، فإذا به ينقسم إلى جزئين، جثة دون رأس، ورأس دون جسد. هكذا هو الأمر، هذا هو السر الذي كان يتهامس به الرجال، وهذا هو السبب في منع الفتيان من مشاركة «عمي إبراهيم» في قذف الحجارة تحت الدبابة كلما ارتفعت، الآن لم يعد السر سراً، كيف حدث ذلك؟ ما أقسى قلبك أيها المدفع، لم تترك فرصة كافية لِ «مروان» بالهرب، «مروان» كان يحب الحياة، لكن الدبابة كانت له بالمرصاد، كانت حافتها مثل البلطة، وكانت رقبته تحت حدّها، فقصمتها. كانت رقبته مثل ساق «خرفيش» بالنسبة لنا، لا تحتاج إلى سكين، يكفي أن تضربها بطرف يدك، فإذا هي جزءان. وقع الأمر وانتهى، لكن ما أثارني وشغل فكري، كيف شعر «مروان» وهو يواجه الحدث، هل خاف؟ هل تألم؟ هل صاح؟ لم أسمع إجابة شافية، لكني أظن أن الأمر حدث بسرعة، ولم يسمح له بالتعبير عن مشاعره. كان «عمي إبراهيم» على حق، والقائد على حق، وكذلك الرجال، فأنا لم احتمل رؤية ميت، فكيف بميت مهشم. كيف دفن أهله ورفاقه الجثة؟ هل رأوه بهذا الشكل؟ ألم يطالبوا بالرأس؟ لماذا لم يطالبوا به! لماذا لم ينتظروا حتى وجدوه! هل يجمعون ما تبقى منه على ما أخذوه! أسئلة كثيرة دارت بيني وبين نفسي.

كان الفتيان المحيطون بالموقع قد أصابتهم الصدمة، لم يتكلموا، لم يسألوا، بقوا كما هم، بقوا في أماكنهم، ومنهم من ابتعد، وراحوا يتقيأون ما في معداتهم. حمل «عمي إبراهيم» الرأس، واتجه نحو المقبرة. حاول الرجال أن يمشوا وراءه، لكنه طلب إلى اثنين فقط أن يأتوا معه، وأصرّ القائد أن يرافقه. ردد بعض منهم الشهادة، وكبرّ الآخرون. كان الموكب قليلاً، القائد

يسير في المقدمة، والرجلان الآخران يسيران على جانبي «عمي إبراهيم». ساروا بضع خطوات تجاه القرية، فإذا الموكب يصبح منتظماً على وقع خطوات القائد، حذاؤه كان يصدر صوتاً وهو يسير، وراحت يداه تتحركان إلى الأمام وإلى الخلف مع وقع الخطوات، كان يمشي مشية عسكرية، ومع كل مسافة يقطعها، يرفع رأسه أكثر وأكثر، ويدفع صدره إلى الأمام. تحول حزنه إلى جد، طارت الدموع من عينيه، وفتحهما على أشدهما، وركزهما إلى الأمام مباشرة. زال تلكؤ قدميه، سمعت صوت قدميه وهما تضربان الأرض بشدة وبثقة. عندما وصل مفترق البلدة وسوقها انحرف يميناً ثم بدأ يصعد الشارع المتجه إلى المقبرة، كانت النساء قد تجمعن على أطراف الشارع، والصمت رهيب يقطعه صوت وقع الخطوات العسكرية. كان الموكب يشكل قطعة واحدة تتحرك وراء القائد، فإذا تمهل تمهلوا وراءه، وإذا راح شمالاً أو يميناً راحوا وراءه. لحظات فإذا الصمت تقطعه – أيضاً– زغرودة من امرأة. قفزت دموعي مرة واحدة وأنا أسمع علامات الفرح في موكب حزين، فإذا زغاريد كثيرة تنطلق من كل المصطفات هناك أمام سقائف «السكنة التحتا». أظن أن نساء القرية كلها كن هناك، وكلما مر الموكب عن مجموعة انضمت للموكب فأصبح أكبر، والزغاريد لا تزال تسمع من كل مكان. انطلق الرجال الواقفون قرب «الكوربة» هم الآخرون في موكب كبير، ولحقوا بالجنازة، النساء تزغرد، والرجال يكبرون، ساروا في الشارع صعوداً، فمروا من أمام «السكنة الفوقا»، وبيت «الساوي» على يمينهم، فكبر الموكب أكثر وأكثر. كان عرساً أكثر مما كان جنازة، وكان العريس هو هذا الرأس. أسرع القائد الخطى، وفعل الموكب مثله، وهناك كان رجل قد حفر حفرة صغيرة، وضع الرأس فيها، غطاه بحجر، وأهال التراب، ووضع إشارة حجرية تدل على الرأس المدفون، قرأ سورة الفاتحة وقرأوا معه. وقف القائد من جديد على طرف القبر، وألقى تحية عسكرية، ثم رفع مسدسه وأطلق منه سبع طلقات، وأمرهم بمغادرة المقبرة، والتجمع عند «الكوربة» ثانية.

كان الشعور متناقضاً وهم يعودون، شعور بالحزن على رأس الشهيد الذي مشوا في جنازته قبل قليل، شعور بالحزن على الشهداء الذين يقضون في المعارك، وشعور بأهمية إنقاذ الدبابة والمدفع حتى لو أن مهمتهما قد انتهت. قبل قليل كان القائد يغط في حزنه حين وجد «عمي إبراهيم» الرأس، وهو العالم أن الرأس هناك، تحت الدبابة، وهو بالتأكيد تعرض للتشويه بحيث لم يعد رأساً، هو العارف أن أي جندي قد يتعرض للموت في أية لحظة خاصة لحظات الحرب. الألم كان مضاعفاً حين أدرك القائد وأدرك غيره أنهم يدفنون رأساً بلا جثة، فالجثة أخذت إلى مكان آخر ودفنت، الرأس أثار الأحزان، دفع بذكريات الموت والزمالة والجندية إلى السطح، والآن يدفن «مروان» بالتقسيط، ما أصعب ذلك! الحزن له درجات، ودرجة الحزن حين وجدوا الرأس كانت عالية، مر وقت قصير، فإذا به يحول الناس جميعاً، وعلى رأسهم «عمي إبراهيم» والقائد إلى فاعلين في الحدث، وليسوا مراقبين له، يتأثرون به، تحامل «عمي إبراهيم» على نفسه، شق ثوبه، وحمل الرأس، أما القائد فتذكر أن دوره أن يشيع الرأس كما يليق بعسكري، وفي الوقت نفسه طلب إلى الجندي الآخر أن يبقى قرب الدبابة، فلكل دوره. تقدم الجنازة، وانتظمت حركاته بعد تعثر، فهو يعرف أنه يؤدي مهمة تليق بزميله، حمل أحزانه معه، ودفعته هذه الأحزان إلى أن يخلص في أداء دوره بأفضل ما يكون. اقتربت من «حامد»، التصقت به علّه يقول لي شيئاً، علّه يلقي بنظرة على ما جرى. أمسك بيدي، تطلع فيّ قليلاً، ولم أقو أن أفعل مثله، خشيت أن أبكي أمامه، فظللت أتطلع مرة نحو الأرض ومرة نحو السماء. شدّ على يدي، اليد التي ظلت مفتوحة وأنا أنتظر القذائف السبع التي لم يطلقها المدفع، وقال: هل ساعدت الشباب في نقل الحجارة في الجهة الأخرى من الدبابة؟

اقترح بعض الرجال أن يأتوا بمصابيح أو «لوكسات» قوية يضيئون بها المنطقة حول الدبابة ليرفعوها، لكن القائد اعترض، وقال إن ذلك خطر على الناس وعلى الدبابة نفسها، ربما تمكن العدو من رصد الأضواء،

وألقى بقذائفه نحونا. استجاب الحاضرون لاقتراحه. جمع الرجال والشباب قطعاً قماشية من حول المنطقة، ومنهم من مزقوا بعض ثيابهم، أو رفعوا أطراف «قنابيزهم»، لفوها حول أيديهم، وأمسكوا الحبال على استعداد لسماع أمر البدء بالعمل. اعتلى القائد مكانه من جديد. تجمع الفتيان حول أكوام الحجارة في الجهة الأخرى، ووقف إلى جانبهم كبار السن، ناداني «حامد»، وقال: لنساعدهم في إلقاء الحجارة تحت الدبابة، هذا الدور ربما يناسبنا الآن. ركضنا بسرعة، قبضنا على بعض الحجارة في انتظار الفرصة لإلقائها. سمعت الصوت من جديد: واحد، اثنان، ثلاثة. علت صيحات «الله أكبر»، وشدوا، شدوا بكل ما لديهم من قوة. تململت الدبابة من جديد، ارتفعت قليلاً، وألقى الفتيان بالحجارة من الجهة الأخرى، وألقيت أنا الآخر حجارة مثلهم، صرخ الفتيان: اسحبوا قليلاً. والحبال تصطك شعيراتها بعضها ببعض، وتتقطع واحدة تلو الأخرى، والرجال يشدون، وتشرئب أعناقهم، وتصطك أسنانهم، يغرزون أرجلهم في الأرض ويشدون.

أمر القائد من جديد بأن يتوقفوا. فعلوا ذلك، وكانت جنازير الدبابة قد انزلقت قليلاً في الخندق، وأصبحت مائلة، كانت «مجعية» كما قال «عمي إبراهيم»، مثل رجل «يرتكي» بمرفقه على الأرض. أصيب الرجال بالتعب، أعياهم الجهد الجديد الذي بذلوه، وجلسوا القرفصاء، تفقدوا أيديهم مرة أخرى، ووجدوا أن آثار الحبال لم تكن كالسابق، فقطع القماش حمت أيديهم من مزيد من الجروح والكشط، لكن حرارتها كانت تكويها. اكتفى القائد بهذا القدر من الإنجاز، وقال إنهم سيكملون مهمتهم بعد صلاة الفجر. طلب إلى الرجال أن يتفرقوا، وسيتولى هو والجندي الآخر الحفر من جديد قرب عجلاتها ليسهل تقويمها. بقي معه بعض الرجال، حملوا المجارف، وبدأوا العمل.

مرت شاحنة كبيرة، كانت تستعمل من قبل لنقل ثمار التين ولأغراض أخرى، كانت تسير ببطء، ولا تضيء مصابيحها التي دهنت باللون الأزرق، اللون الذي دهنّا به مصابيح بيتنا، دهنُاها بِ «النيلة»، تلك المادة التي

تستعملها أمي وباقي الأمهات في غسل الملابس البيضاء، فيصبح القميص الأبيض «مزهزهاً». كانت أمي تحضر صبغة «النيلة» تضعها في وعاء صغير، تسكب عليه بعض الماء، وتخلطه بعود وتسكبه على الغسيل. استخدم الناس المادة نفسها أيضاً هذه المرة، ولكن بكثافة لونية أكبر، وضعوها في كوب، وأذابوها في الماء، وطلوا المصابيح، وهكذا كما يبدو فعل صاحب الشاحنة مع مصابيح شاحنته. هذه الشاحنة تخص أحد أثرياء القرى المجاورة، يقال له «النعلاوي». كانت الشاحنة تقل بعض العائلات الذين ودوا أن يذهبوا إلى مكان أكثر أمناً، فهم قريبون جداً من الحدود، وكل عائلة تبحث لها عن مكان آمن. كانت وجهتهم هذه القرية بالذات، فجبالها كثيرة، ووديانها واسعة، والخير فيها وافر. صاحب الشاحنة نعرفه، هو نفسه السائق، كان يأتي يوماً بعد يوم من جهة الشرق بصناديق خشبية فارغة، نسميها «سحاحير»، يوزعها على الناس الذين يودون بيع التين، وكنا نحن من ضمنهم، فقد كان والدي يكتري كرم تين من أهالي «بيت اللو»، يكون على الأغلب قرب الشارع الرئيس، نتسابق على «السحاحير» قبل أن تنفذ، وكثيراً ما حدث ذلك، تحملها أختي «عليا» على رأسها، ونحمل أنا و «علي» بعضها بأيدينا، ونضعها في الكرم. نصحو صباحاً، قبل صلاة الفجر، نعبئها بالتين، ننهي هذا العمل بسرعة لنستطيع بعدها الرجوع إلى البيت، وغسل أيدينا ووجوهنا، وحمل حقائبنا، والذهاب إلى المدرسة لنصلها قبل قرع الجرس. ننقل «السحاحير» قرب الشارع، ليأتي «النعلاوي» لأخذها عصراً، ويعطينا بعض النقود ثمناً لها. كان الثمن حوالي عشرين قرشاً للصندوق الواحد، هكذا عشنا، كان هذا مصدر رزقنا بالإضافة لما كنا نجنيه من اكتراء كروم الزيتون والأرض التي كنا نزرعها بالخضار والحبوب. هذه الشاحنة هي نفسها التي نقلت والديّ لزيارة بيت الله في مكة المكرمة قبل سنة واحدة من هذه الحرب، غاب شهراً كاملاً قبل أن يرجع وقد أصبح اسمه الحاج وأصبحت أمي الحاجة، وأحضرا لنا معهما هدايا كثيرة من ثياب وألعاب.

توقفت الشاحنة، ليرى راكبوها أي حادث ذلك الذي جرى. تجمع

الناس حولها من جديد، ووجدوا فيها الحل، أتفق قائد الدبابة معه أن يستخدم هذه الشاحنة التي زارت بيت الله لإنقاذ الدبابة من وقعتها. فالشاحنة أخت الدبابة في الحجم وفي القوة، ولا بد أن الله باركها كما بارك الذين زاروا مكة من البشر، وأصبحوا حجاجاً. ترجل «النعلاوي» وطاف بالمكان علّه يجد أفضل بقعة يقف فيها. لم يكن ذلك سهلاً، فالمكان الملائم لذلك هو «الكوربة»، وتلك كان سطحها ناعماً جداً، يمكن أن تتزحلق عليه، وتلقى المصير نفسه، فما العمل؟ لماذا سطح الشارع أملس إلى هذا الحد؟ لا أذكر متى عبدوه، صحوت على نفسي والشارع كما هو، أملس، ربما بسبب حرارة الصيف، كل صيف، إذ كنا نلاحظ فقاقيع «الزفتة» وهي تصعد إلى أعلى وتصبح على سطح الشارع، فتجعله أملس، لكني أذكر متى عُبد الشارع الذي يصعد إلى القرية من الشارع الرئيس، كان «رصفة» إنجليزية كما قالوا، لكنه لا يزال خشناً. يوم رصفوه، ألقيت بحذائي جانباً، وقررت أن أركض عليه جيئة وذهاباً، ظننته مثل شارع «الكوربة»، رجعت إلى البيت وقد وخزت «الحصمة» أسفل قدمي، ولم أكرر هذا الأمر ثانية، ولم أفرح به كما ينبغي. «الرصفة الإنجليزية» قوية رغم أن الحمار حدد مسارها، فلا حرارة الشمس تفسخها، ولا المياه الدافقة في الشتاء تجرفها، رأيت ذلك بعيني وهم يعبّدونه، أتوا بأكوام حجارة نقلتها الشاحنات القلابة، ونصب العمال خياماً في بستان «الساوي»، كان العمال مهرة في «الرصفة» الإنجليزية، انتقوا الحجارة الكبيرة، وحددوا بها طرفي الشارع، سموها «الجبه»، ووضعوا بين خطي «الجبه» حجارة أخرى، ملأوها بالحجارة الكبيرة والصغيرة، ومن ثم أتوا بِ «الحصمة» وغطوها، ومن ثم أتوا بِ «الزفتة» المغلية ورشوها بأباريق حديدية كبيرة وبمكانس طويلة، وغطوها بِ «الحصمة» ثانية وبِ «الناعمة» و «دحلوها». هذا الشارع، شارع «الكوربة»، أملس، تتزحلق عليه الشاحنة، وربما زحلق عجلات المدفع الذي ينام الآن أسفل الشارع. لا يمكن للشاحنة أن تقف معتدلة في الشارع، فالشارع كان بموازاة الدبابة وهي «مجعية» على جهتها اليمنى، كما لا يمكن أن يفيد

وقوف الشاحنة بين الأشجار من الجهة السفلى، فلا يمكن أن يفكر أحد أن يقلبها ثلاث مرات قبل أن تعتدل. عرف القائد، وعرف «النعلاوي» أن في الأمر مغامرة قد تنجح، وقد تفشل. أذن المؤذن لصلاة العشاء، والتخطيط لا يزال يأخذ وقتاً.

قال القائد:

– لن تقوم الشاحنة بالعمل كله، مع أنها تعادل تقريباً وزن الدبابة، إلا أن هذا العمل سيرهق الشاحنة، فالدبابة نائمة، إنها شبه ميتة. ستقف الشاحنة في عرض الشارع، سنربط بها معظم الحبال في الجهة الوسطى من الدبابة، وسنربط حبلين آخرين من طرفيها يشدهما الرجال، وسيقوم بعض الرجال بإلقاء الحجارة من الجهة الأخرى، أما الرجال المتبقون، فسيلقون بالحجارة تحت عجلات الشاحنة كلما ارتفعت مسافة ولو قليلة.

شعر الجمع بالارتياح لخطة القائد، وبدأوا يربطون الحبال ويستعدون. أتوا بفؤوسهم، وشرعوا «ينكشون» الشارع ليصبح خشناً، وأحدثوا فيه بعض الحفر. بهذه الطريقة يحافظون على حياتهم، ويمنعون الشاحنة من الانزلاق.

وقفت الشاحنة في عرض الشارع. وربطت الحبال بينها وبين الدبابة، وشدها «النعلاوي» أكبر قدر ممكن. وضع الرجال حجارة كبيرة تحت عجلاتها، ونقلوا حجارة أخرى إلى أماكن قريبة. تجمع الرجال حول الحبلين الآخرين تحت الشارع، وتجمع الآخرون وبعض الفتيان الذين تبقوا في الجهة المقابلة. اعتلى القائد صندوق الشاحنة هذه المرة، وصاح فيهم:

– انتبهوا جيداً، شدوا على إيقاع الشاحنة، أنا الذي يحدد متى تبدأون العمل. ابتعدوا من خلف الشاحنة، تمركزوا على جانبيها، الشجاعة تكون مفيدة بإنجاز العمل وليس بالوقوع في مصيدة الموت، اعتبروا مما حدث مع الجنديين الشهيدين. الشاحنة مصيدة للذين يعملون على جانبيها، وللذين يقفون أسفل منها وهم يشدون الحبال، إذا لاحظتم أن الشاحنة توشك أن تهوي إلى أسفل، ابتعدوا مباشرة، وليكن اتجاه شدكم للدبابة بزاوية تميل

إلى الخارج، هكذا تتمكنون من الحفاظ على حياتكم. اصغوا لما أقوله جيداً، صوت الشاحنة سيغطي على صوتي قليلاً، سأرفع صوتي أكثر من قبل، وسأشير بيدي خاصة لأولئك الذي يقفون مقابلي، لا تقتربوا من الدبابة أكثر من اللازم، لا يغرّنكم ارتفاعها عن الأرض، فارتفاعها يعني أنكم أنجزتم عملاً من جهة، ومن الجهة الأخرى، يعني أن الخطر يزداد عليكم لو انقطعت الحبال، لو حدث ذلك فربما تنقلب عليكم. اعرفوا جيداً أن الشاحنة هي العامل القوي بينكم، لا تستأسدوا إذا ما لاحظتم نكوص الشاحنة، فهي أقوى منكم جميعاً. يا الله، سأعد: واحد، اثنان، ثلاثة.

علت صيحات التكبير، وانتظروا ارتفاع صوت الشاحنة وهي تحاول الاندفاع إلى الأمام، اشتدت الحبال جيداً، وتقطعت بعض فتائلها، فحرك الرجال الحجارة على الجانبين لتكون ملاصقة لعجلاتها، فإذا صوت رجل يصرخ: طائرة في الجو. أمر القائد الجميع بالتوقف، وأمر «النعلاوي» بإيقاف محرك الشاحنة، وأمرهم بالابتعاد عن المكان بأقصى سرعة. تفرق الجمع بسرعة وسط ظلام الليل، وتحت ضوء القمر. انتشروا تحت أشجار الزيتون المجاورة، اختبأوا هناك، ومنهم من ابتعد كثيراً. صاح القائد فيهم من جديد أن يأتوا ثانية، فالطائرة لم تكن سوى طائرة نقل. قال ذلك وراح يفسر لهم السبب:

– كل طائرة بهذا الشكل، حجمها كبير، وذيلها فارغ من وسطه، وتسير بهذه السرعة البطيئة نسبياً هي طائرة نقل، تقوم على الأغلب بنقل جنود إلى مناطق الجبهة.

وقف أبي، بطوله الفارع، وبجسده الضخم، وأشار للقائد بيديه الطويلتين، وصاح بالقائد:

– هل يعني هذا يا سيدي القائد أننا خلف جبهة الحرب!

– لا، يا سيدي، يمكن أن تكون الجبهة في الشرق منا مباشرة، ويمكن أن تكون في الشرق الشمالي أو الجنوبي.

– ولكن هذه الطائرة تتجه شرقاً، أين هو المطار الذي يقع في الشرق،

لا نعرف سوى مطار القدس، هل يعني هذا أن مطار القدس تم احتلاله!

– لا، ولكن يا سيد، هذه الطائرات يمكن أن تحط في أي مطار عسكري قريب، وليست المطارات المدنية هي محطاتها المعتادة.

وأكمل حديثه:

– لا تنسوا أن هذه الطائرة إسرائيلية على كل حال، ويبدو أنكم عرفتم ذلك قبل أن أخبركم.

صاح والدي، الذي وجد أن الآخرين أنصتوا لكلامه حين تحدث قبل قليل، ووجد أنه يريد أن يعرف المزيد، وأن يجد أجوبة عن تساؤلاته، وتساؤلات الجميع رغم الموقف الذي يمرون به لإنقاذ الدبابة، صاح بطريقة فيها شيء من الهزل:

– لو كان مدفعك يعمل لاستطعت إسقاطها.

– لا تذهب بتفكيرك بعيداً، فهذه الدبابة لا تستطيع إسقاط هذه الطائرة أو غيرها. صممت هذه الدبابة لتدمير المواقع الأرضية، ونحن لا نحمل معنا سلاحاً يستطيع إسقاط طائرات.

سأل أبي ثانية:

– وكيف ستدافعون عن أنفسكم لو قررت قصفكم؟

– نوقف الدبابة، ونهرب إلى أقرب المواقع أمناً حتى نتأكد أنها لم تكشفنا، ونعود إلى عملنا من جديد.

تطلع الرجال والفتيان في وجوه بعضهم بعضاً، فمنهم من هز رأسه علامة أسف، ومنهم من فعل ذلك علامة استهزاء، فإذا أبي الذي شعر بمزيد من الارتياح لتعليقاته يصيح محتداً:

– إذاً لنعد إلى العمل من جديد.

– نعم لنعد إلى العمل من جديد، ويمكننا أن نتحدث عن أمور كثيرة بعد أن ننهي هذه المهمة التي نحن بصددها الآن.

– وهل ستكون صريحاً معنا؟

– نعم، سأكون صريحاً، لكن لنعد إلى العمل الآن.

سألت «حامد»، وأنا لا أجد لكل تساؤلاتي جواباً: لماذا يكون ذيل الطائرة فارغاً من وسطه؟

– لا أعرف، دعنا نسأل القائد.

– وهل تجرؤ على ذلك؟

– سأفعل.

صاح بصوت عالٍ:

– لماذا ذيل الطائرة فارغ من وسطه يا سيدي القائد؟

التفت القائد نحونا باستغراب، استغرب السائل والسؤال، صمت فترة وهو يبحث عن إجابة مناسبة، وقال:

– هذه الطائرة كذلك، لكن هناك طائرات نقل أخرى، وذيلها كامل.

شعر «حامد» بالزهو وهو يستمع لإجابة القائد، فالفتيان يستطيعون توجيه الأسئلة، ويمكن أن يحصلوا على رد، شعرت أنا الأخر مثله، فأنا الذي أثرت السؤال. كانت لدي أسئلة أخرى، لكني اكتفيت بإجابة واحدة، ويمكن أن أخبر «حامد» عن أسئلة أخرى، أو يمكن أن أسأله وغيره أسئلة أخرى إذا كان ذلك ضرورياً.

تجمع الحشد من جديد، وأخذ كل منهم موقعه الذي كان قبل ورود خبر الطائرة، واعتلى القائد موقعه في صندوق الشاحنة، وصاح فيهم: واحد، اثنان، ثلاثة. علا صوت محرك الشاحنة بحيث غطى على كل الأصوات وكل الهمهمات، وصيحات «الله أكبر». المحرك يدور بكل ما لديه من قوة، والحبال تتمزق شيئاً فشيئاً والرجال يشدون. يغرزون كعوب أقدامهم في الأرض ويشدون، و «يكزّون» على أسنانهم ويشدون. والفتيان والرجال في الجهة الأخرى يحملون الحجارة بأيديهم انتظاراً لحركة جسدها في الاتجاه المقابل. ويحاولون تشجيع الآخرين بأصواتهم دون أن يستطيع أحد سماعها. انخفض صوت محرك الشاحنة قليلاً، ثم أعلن القائد بدء العد مرة أخرى. عدّ الرجال معه، وكبروا وهللوا. اهتز جسم الدبابة عن الأرض، وارتفع قليلاً، وراح الرجال يقذفون الحجارة تحتها، وتقدمت الشاحنة بضعة

سنتمترات، والتصقت الحجارة بعجلاتها ثانية. انخفض صوت المحرك، وكأنه يأخذ نفساً عميقاً، ثم علا من جديد، وعلت معه صيحات التكبير، فإذا الشاحنة تتقدم قليلاً، ويرتفع معها جسم الدبابة، وينقل الرجال أقدامهم إلى أماكن متقدمة. خفت صوت محرك الشاحنة مرة أخرى، أخذ نفساً عميقاً هذه المرة، وارتفع مع ارتفاع صيحات التكبير، فإذا الدبابة تقف على عجلاتها من جديد. سكن صوت الشاحنة، وعلت بدلاً منه «المواواة» والزغاريد، رددها الرجال والفتيان، وسمعت من بعيد زغاريد النساء.

فكّ الرجال الحبال عن الدبابة، وتلك التي تربط الدبابة بالشاحنة، وتحركت الشاحنة إلى مكان أكثر استقراراً من هذا المنحدر. شعر الناس بالارتياح، فجهودهم التي بذلوها طيلة النهار وما راح من الليل لم تذهب هدراً، لقد ساهموا في هذه الحرب، أنقذوا الدبابة، وما على القائد إلا اعتلاؤها، وهي ستقوم بإنقاذ المدفع الذي لا يزال نائماً. العمل الذي قاموا به كان عظيماً، الجميع شعر بذلك، بان ذلك من خلال قسمات وجوه الذين استطعت أن أراهم في هذا الليل، ومن خلال مشيتهم الواثقة بعد أن أنهوا المهمة، وبان – أيضاً– من خلال أحاديثهم. فكل كان يصف نفسه وهو يشد الحبل أو وهو يلقي الحجارة تحت الدبابة أو وهو يمنع الشاحنة من الانزلاق. صحيح أن الشاحنة ساعدتهم، ولكنهم هم الذين أحضروا الحبال، وهم الذين ربطوها، وهم الذين شدّوها، وهم الذين فكوها، وهم الذين أطعموا وسقوا طاقمها. فعلوا الشيء الكثير، وما عليهم الآن سوى الالتحاق بعائلاتهم، أو الرجوع إلى بيوتهم، والنوم بهدوء. طلبوا الماء فشربوا، وطلبوا الطعام فأكلوا جماعة، وتناولوا القهوة، ودخنوا سجائر، وجلسوا على الشارع أو قريباً منه.

اقتربت من «حامد» مرة أخرى، وسألته:

– ألا تشعر بأن النوم في المغارة مثل النوم في مقبرة؟ ها نحن قد قضينا ما مر من الليل في الحقول، ومع الناس، لم نشعر بالخوف، هل نعود إلى المغارة؟

– أوافقك، أنا أشعر مثلك. لا أظن أن كثيرين سينامون في المغارة، على

الأقل أسرتي لن تنام هناك هذه الليلة.

وقف القائد، وصاح في الناس بأعلى صوته أن يبتعدوا من جديد، فهناك صوت طائرة حربية يعلو. ابتعد الناس بسرعة بين الأشجار وفي السهول، ومنهم من ركض تجاه القرية. حلقت الطائرة حول المكان، دارت حوله، وألقت قذيفة، فإذا الشاحنة تحترق، وصوت الانفجار يهز كل مباني القرية، ويصم آذان القريبين منه. هرب الناس من جديد إلى أماكن أكثر بعداً، ركضوا بكل قوتهم، وصل الكثير منهم إلى أعالي الجبال المجاورة، ومنهم من اختبأ وراء الصخور، وصوت الطائرة يدل على أنها ما تزال في المكان. شعرت بالخوف كثيراً، شعرت بأن رجليّ لا تستطيعان حملي، ركضت بكل ما أستطيع صوب القرية، لكن الرجال كانوا يصيحون فينا أن نبتعد عن الشارع، وأن نركض بين الأشجار والبساتين. قفزت في الحقل المجاور، فعلت ذلك بكل قوتي، وحاولت أن أقترب من مباني القرية. كان معي الكثير من الرجال والفتيان، ولم يكن أبي من بينهم، سمعت ما يشبه صوته وهو ينادي عليّ، وسمعت ما يشبه صوت أمي من الجهة الأخرى. أصبحت قريباً من بيتنا، ولاحظت أن النساء والأطفال كانوا هم الآخرون يخلون منازلهم، ويبتعدون إلى الحقول. لا أعرف كيف اهتديت إلى أمي، وجدت نفسي هناك، أمسكت بيدي، وضربتني ضربة ملاقاة وعتاب، ورحنا نركض حتى اختبأنا تحت شجرة زيتون، التصقنا بساقها، وكان ساقها كبيراً ومجوفاً، وله ما يشبه الباب، دخلنا منه، أصبحنا داخل الساق، ربما كنا خمسة داخله، بينما التصق آخرون على بوابته. لم نخش إن كانت هناك أفاع أو عقارب، فماذا يمكن لهذه أن تفعل مقابل الحرب التي تدور، قالت أمي: التصقوا بي. فالتصقنا، فردت يديها حولنا، وراحت تدعو الله أن يحمينا. علا صوت الطائرة أكثر، فإذا صوت انفجار آخر في الدبابة، هكذا أخبرنا الذين كانوا خارج الساق، وإذا النار تشتعل، كانت نارها تضيء الموقع تماماً، وأضاءت جزءاً من القرية، تحول الليل إلى نهار، واستطعت أن أرى النار الحمراء من الشق الذي في الساق المطل على «الكوربة». صاح الناس: يا الله، يا ساتر استرنا. أصرت أمي أن نبقى داخل الساق، بقي بعضهم قربنا، وهرب الآخرون.

(4)

كيف أعرّف نفسي الآن؟! ما هو المصير الذي سنلقاه؟! أين سنذهب؟! ماذا سنفعل؟! تساؤلات لا أعرف إجاباتها. أنظر نحو أبي، وهو يستمع إلى المذياع دون أي تعليق، يُقلب المفتاح بين محطة وأخرى، أراه يبحث عن خبر يؤكد أو ينفي ما يراه على أرض الواقع. تجهم وجهه وأصابته الحيرة. حبس في نفسه حزناً وألماً، ترهلت عضلات يديه، وخفّت مشيته، قللّ من نظراته نحو الآخرين، وركز نظره في الأرض. أحس بانكسار، أحس بهزيمة أمامه، طار الحلم بالعودة إلى قريته، وصارت أمنيته أن يحافظ على نفسه وأسرته. غابت الأصوات المجلجلة عبر المذياع الذي يحمله، وما يسمعه الآن ليس سوى لهجات اعتاد سماعها في بيوت العزاء، ضاعت الخطابات وحل محلها الكلام الهادئ، أما الأغاني، فبعضها اختفى، وبقي بعضها الآخر. أمي تنزوي في غرفتها، تلملم دموعاً محبوسة في مآقي عينيها، تتطلع نحونا ولا تقول شيئاً، تحرص أن نبقى على مقربة منها، أدركت ذلك دون أن تتفوه به، أدارت ظهرها إلى جدار السقيفة الغربي، التصقت به، توجه نظرها إلى الأرض تارة، وإلينا تارة أخرى. أراقب «عليا» وهي تلبس ثوب أمي، تحاول أن توهم القادمين الجدد أنها أكبر من عمرها إذا ما جاءوا، و «علي» يتجول بين مجلس أبي وغرفة أمي، يطل من وراء البوابة ثم يعود إلى الداخل.

هدوء في القرية، لا صوت و«لا حس ولا نس»، لا رائح ولا غاد، والكلاب تنبح من وقت لآخر، وتتجول في الأزقة، تقف قليلاً أمام هذا البيت ثم تنتقل إلى البيت الذي بعده، كأنها تتفحصها، كأنها تحس بما يحس به ناسها وأصحابها. حمارنا ينهق، ربما يريد أن يخرج من زريبته، وربما يشعر بالجوع، ينهق، فيسمع نهيقاً من طرف آخر، يشعر بالأنس، يكسر وحشته، فينادي مرة أخرى وأخرى حتى يمنع الحاضرين من سماع الأخبار. ناداني أبي طالباً مني أن أطلق الحمار علّه يتجول في القرية أو يذهب إلى الحقول

لإشباع معدته. فعلت، وألقيت نظرة إلى الشارع الرئيس، فلا صوت ولا ناس، ودخان الطوابين لم يعد يغطي سطح القرية، انطفأ معظمها، وانطفأ الناس معها. الحمير تتجول بين الحقول بحرية، تأكل الزرع، وتنهق، وتطارد بعضها، ولا تجد من يرعاها أو يردها، رأيت حميراً تتمرغ بالتراب تحت أشجار الزيتون، تقي نفسها لهيب الشمس، ترتاح قليلاً ثم تنقض على حقول الحبوب، وتعود مسرعة إلى الفيء. الشمس حارقة، والنظر إلى الجهة المقابلة «يزغلل» العيون، يرّج الصوّر، يهزها فلا يبقيها في مكان ثابت. الحمير جائعة، تهاجم الحقول، والناس لا يأبهون كثيراً بثمرة جهدهم. نهيق الحمير يتردد من كل زاوية في الحقول، وتحت أشجار الزيتون، حتى يقلق الناس جميعاً. الناس يقبعون في بيوتهم، يغلقون الأبواب، والحمير تدور في البرية. الناس يلوذون بالصمت، والحمير تطلق صرخاتها المعهودة. الناس فقدوا مشاعر الأمل، والحمير تنط فوق بعضها بعضاً. لقد تحررت من سجن الغرف والساحات المغلقة، انطلقت إلى البر، بينما نحن في السجن. هي لا تخاف القتل ولا العدو ولا طائراته، بينما نحن نخاف كل شيء، نخشى نسمة الهواء، ونفسر نهيق الحمار على أنه صوت طائرة، ونعتقد أن صوت كلب يركض هو وقع أقدام الأعداء. الحمير لا تفكر في ماضيها ولا في مستقبلها، تفكر فقط في حاضرها: كيف تنطلق في الفضاء الواسع، وكيف تأكل وتشرب، وتستمتع. حسدتها على ذلك.

شعور الناس بالانكسار لا يوصف، غذته إذاعة «إسرائيل» التي انكبّ الناس على سماعها بعد طلب الإسرائيليين إليهم أن يرفعوا الرايات البيضاء فوق أسطح بيوتهم، وأن يبقوا في منازلهم، ولم تستطع إذاعات العرب من أولها إلى آخرها رفع معنوياتهم. فالعرب لا يزالون يتحدثون عن المعارك المختلفة التي يخوضونها في مختلف الجبهات، وعن عدد الأسرى والقتلى الإسرائيليين، وعن أعداد الطائرات التي أسقطت، والدبابات التي تم تدميرها، كأنهم يجملون نتائج الحرب. كثر عرض هذه الإذاعات للموسيقى الهادئة، إنها أشبه بموسيقى الحداد، كأن القول انقطع ولم يجدوا ما يتحدثون عنه،

وفي أوقات الصلوات يكثرون من فترة تلاوة القرآن والدعاء، تتخللها الأغاني، تصرخ «والمعارك مستمرة، يا جماهيرنا يا حرة، والوطن عايز رجال، كلهم عزة وثورة». أما الإذاعة الإسرائيلية، فتبث نداءات موجهة إلى الناس، إلى أمثالنا، تنقل لنا أخبار الحروب الإسرائيلية العربية، وأخبار ساحات المعارك، وآراء الزعماء الإسرائيليين فيما يحدث، وتطالب العسكر بتسليم أسلحتهم وأنفسهم للمخاتير والأعيان من أجل الحفاظ على سلامتهم.

ما أغاظني هو الأغاني التي بثتها إذاعتهم، إنها تلك التي كنا نسمعها يومياً، هي أغاني «أم كلثوم» و«محمد عبد الوهاب» و«عبد الحليم حافظ» و«فريد الأطرش» و«صباح» و«سميرة توفيق» و«فيروز» وغيرهم، لكنها لا تحمل المعنى الذي كنا نفهمه سابقاً، فالأغاني العاطفية لم تعد عاطفية، والود والحنين لم يعودا كما كانا، ومعاني الفرح لم تعد هي الأخرى نفسها. إنها تحمل معاني أخرى، تحمل معاني «المكايدة»، وهزيمتنا وانتصارهم. إنهم يحاربوننا بهذه الأغاني، إنهم ينزلون بنا إلى أدنى مرتبة، إنهم يحطمون نفسياتنا، ويجعلون منها لعبة بين أيديهم، يواجهون الجيوش بالآلات العسكرية، ويواجهوننا بهذه الأغاني. فما معنى أن تقول «أم كلثوم» «رجعوني عينيك لأيامي اللي راحوا، علموني أندم على الماضي وجراحه، واللي شفته قبل ما تشوفك عيني، عمري ضايع يحسبوه إزاي عليّ؟!» وما معنى أن تقول «صباح» «أبو سمرة زعلان، ليش؟! وعامل حاله مش سألان؟!» وما معنى أن يقول «فريد الأطرش» «أدي الربيع عاد من تاني، والفجر هلت أنواره»؟ ويقول «عبد الحليم حافظ» «ضي القناديل، والشارع الطويل، فكرني يا حبيبي، بالموعد الجميل، بليالي سهرناها... يا شارع الضباب، مشيتك أنا مرة بالعذاب ومرة بالهنا ...»، وتقول «نجاة الصغيرة» «القريب منك بعيد، والبعيد عنك قريب، كل ده وقلبي اللي حبك، لسه بيسموك حبيب»، وتقول «شادية» «مين قلك تسكن بحارتنا تشغلنا وتقل راحتنا، يا تشوفلك حل بحكايتنا، يا تعزل وتسيب حتتنا». دققت جيداً في الأغاني، ما هي الرسالة التي تحملها؟! ما هو مأربهم؟! لا يمكن أن تكون للأغاني التي نسمعها الآن

المعاني نفسها التي أدركناها من قبل. ليس فيها بكاء على غياب العزيز، وليس فيها شوق للقائه، وليس فيها فرح بمناسبة. لا يمكن أن يكون قد تم انتقاؤها بشكل عشوائي، لا بد أن هناك علماء وراء اختيارها. هل يُمكن أن أفسرها أنا وغيري بغير هذه الطريقة؟! هل يمكن أن تكون المشكلة لدينا نحن؟! سألت «حامد»:

– ألا ترى ما أراه يا «حامد»؟

فكر قليلاً، وكأنه اكتشف ما أعنيه، وقال بحسرة:

– نعم، إن لها مذاقاً غير الذي عرفناه من قبل. إنها «تكيدنا» بدل أن تواسينا، فهذه أغانينا نحن وليست أغانيهم. إنها تمرغ رؤوسنا في الوحل، بدل أن ترفعها. هل كان المغنون يقصدون ذلك! ما هي المادة التي يضعونها على الأغاني لتحمل معاني أخرى غير التي نعرفها! اسمع: ما معنى أن يقول «عبد الوهاب»: «خي، خي، حبيبي ليه قاسي ليه يا خي،...أمانة لو يسألك في البعد عن حالي، احكيلو ع اللي جرى واللي بيجرالي»؟.

تعرضنا لأغاني أخرى، ولمطربين آخرين، وجدنا أن كل الأغاني تحمل معاني أخرى حين تذيعها الإذاعة الإسرائيلية. شعرت بالارتياح وأنا أسمع ما قاله «حامد»، شعرت بالارتياح وأنا أكتشف هذا الأمر قبل أن يخبرني به، فـَ «حامد» صديقي، هو الذي يأتيني كل يوم بشيء جديد، وها أنا ذا أضيف له اليوم شيئاً جديداً.

الناس لا تعرف ما يحدث بالفعل على جبهات القتال، لكنهم مروا بتجربة الدبابة التي تجر المدفع، بعد أن ألقت قذائف ثلاثا على «تل أبيب»، وعادت، وانقلبت على «الكوربة»، فقتلت جنديين. عمل الناس نهاراً ونصف ليلة وهم يحاولون إرجاع الدبابة إلى وضعها الأصلي لتساهم في الحرب من جديد، أو تعود إلى قواعدها سالمة. بذلوا جهداً لا يوصف بعقولهم وعضلاتهم وأدواتهم، وأتت شاحنة «النعلاوي» وساعدتهم في التغلب على هذه الأزمة، ولكن بعد حين، جاءت الطائرة الإسرائيلية، قصفت الشاحنة، وقصفت الدبابة، وأحرقتهما. كل ما قام به الناس راح هباء، وراحت معه

الشاحنة التي أقلت أناساً يبحثون عن الأمان هباء أيضاً. لو كان الناس يعرفون هذه النتيجة، لما ضحوا بحبالهم التي جمعوها من كل بيت تقريباً، وملابسهم التي تمزقت بين الشد والشد المتواصل، وأيديهم التي كشطت أكفها وجرحت، وعرقهم الذي سال وبلل ما تبقى من ثيابهم. لم يتبق في عيونهم دموع يذرفونها، فالدموع تجف وقت الحرب، وتعود لتعمل بعد انتهائها، الخوف من الحرب وويلاتها يقتل الدموع، الخوف من المستقبل يقتل الحزن، لكنه يوقظ الحذر، يهول الأمور ليصبح كل شيء مخيفاً، فظهور ضوء في الجبال المقابلة يعني أن الدبابات الإسرائيلية تقترب، وظهور شخص غريب من بعيد يعني أن الجنود العرب يهربون، وحفيف أوراق الشجر في الليل يعني أن مشاة العدو يبحثون عنهم. كل حركة أو لاحركة «بعبع» يخيف الناس، حركة الحمير وهي في بيوتهم تفزعهم، وحركة الكلاب في الأزقة ترعبهم، وقفزات القطط على ألواح الزينكو والجدران تخرجهم عن طورهم، والعتمة، والسكون، والصمت، كل شيء يقلقهم. تمنوا أن يتحرك كل الأحياء مثل النمل، فلا يسمع دبيبه. انتهت مساهمة الناس في الحرب، فالحرب بالنسبة لهم تعني هذه الدبابة التي جاءت من الشرق، مرت بشارع القرية واتجهت غرباً، ثم عادت وانقلبت وقتلت وعدلت واحترقت. أما المدفع فلا يزال «مجعياً» على «صفحته»، يغرز ماسورته في التراب. ذبل قوامه، وعاد بلا حراك، ومن الصعب أن يعود كما كان، فلا أحد يمكنه جره، فهو دون هذه الدبابة بلا فاعلية، وهو دون قذائف بلا هيبة، وهو دون اعتدال قوامه بلا قوة.

إذاعة إسرائيل لا تكف عن توجيه النداءات إلى الناس ليرفعوا الرايات البيضاء فوق البيوت، والمعلقون الإسرائيليون يبثون نداءات أخرى بطرق أخرى: «ابن الرافدين» يبث نداءاته باللهجة العراقية «شلونك عيني؟ الله يساعدك»، و «ابن النيل» يفتتح نداءاته بِ «إخواني يا ولد مصر الطيبين»، و «ابن الأردن» يفتتح نداءاته بِ «يا هلا بالربع»، و «ابن بردى» يفتتح نداءا ته بِ «يا الله يا رب، كيفك ابن عمي؟»، و «ابن الصحراء» يقول «الله بالخير، أخبارك زينة؟». ازدادت المدة التي يسمعون فيها إذاعة العدو، وبات الناس

يسمعون أسماء القادة الإسرائيليين بصورة أكثر وضوحاً حتى حفظوها، فمن «غولدا مئير» إلى «موشيه ديان» إلى «الجنرال بيلد» إلى «ليفي أشكول» إلى «أبا إيبان». كلها أسماء لم يعرفها الناس في الفترات الماضية، وحفظوها خلال يوم واحد. تطلع فيّ «حامد» وقال ما يشبه الهزل:

– هل سنهتف هذه المرة لهذه الأسماء الغريبة؟!

ضحكت من كل قلبي، قطعت الصمت بضحكاتي وأنا أتخيل كيف سنهتف بأسماء جديدة. قلت له:

– ولكن هذه الأسماء تكسر موسيقى الهتافات يا حامد، هذه الأسماء لا تتفق مع هتافاتنا، ألا تلاحظ أننا في الهتافات نستخدم اللحن الذي يستخدم في الأعراس، فبالأمس كان أهلنا يقولون: قوك يا «بوكاج»، مدّ إيده تركناها.

– ألا تعرف أن «بوكاج» هذا كان تاجراً يهودياً، وأن أهل قريتنا الأصلية ودوا أن يقولوا إنهم يرفضون حتى مد اليد له والتسليم عليه!

– نعم أعرف، فهل يمكن أن يأتينا «بوكاج» كما كان يأتي أهالي القرية من قبل ليشتري حجارة من الكسارات؟

– ربما يأتينا على ظهر دبابة، ربما قاد الطائرة التي أحرقت الدبابة والشاحنة، وربما يقود المعركة من مكان ما.

– هل سيعاقب أهالي قريتنا لمجرد أنهم كانوا يرفضون التعامل معه قبل تهجيرهم؟

– لا أعرف، لكن أبي أخبرني أنهم يتحملون الإهانات الصغيرة لتحقيق مكاسب كبيرة، على عكس أهالينا الذين يقيمون الدنيا ولا يقعدونها على الأشياء الجزئية وينسون قضيتهم الأساسية.

– هل تعتقد يا حامد أن «بوكاج» يحارب ضدنا؟ هل صحيح أن كل اليهود هم جنود في الجيش الإسرائيلي؟

– أبي يؤكد ذلك. إذ رأى أن التجار الذين كانوا يترددون على القرية قبل حرب التهجير، أتوها على ظهر الدبابات، وهم الذين أطلقوا الرصاص

في كل مكان، لإرعاب الناس.

طافت في مخيلتي القصة التي رددها أبي كثيراً في سهراته تحت العريشة، رددها وهو يتألم من موت شخص عرفه جيداً، وخفت منها كما لو أنها تحدث الآن. كان رجل يدعى «جميل» يعمل في «كمب بيت نبالا» أميناً لمستودع لمخزن «البراغي والصماويل»، كان متعلماً يتقن اللغة الإنجليزية بطلاقة، وإذ بحارس يهودي يعمل في الشرطة الإنجليزية وبيده سكين، سأله «جميل»: لماذا تحمل هذا السكين؟ قال: لكي أقتل المفتي. احتد النقاش بين الطرفين، وتحول إلى صراخ. وبسبب وجود عرب آخرين انسحب اليهودي من المكان. تقدم «جميل» بشكوى إلى القائد الإنجليزي الذي كان يدعى «بورمان»، فنقل اليهودي إلى مكان آخر هو الورشة. وبعد أربعة أيام من هذا الحادث، وفي الساعة الرابعة، عندما سمعت الصافرة معلنين انتهاء الدوام، أغلق «جميل» المستودع، وذهب لتسليم المفتاح إلى «بورمان». غادر الجميع تقريباً «الكمب»، كان الحارس اليهودي بانتظاره هو ومسؤول يهودي آخر، قام الاثنان بوضع كيس من الخيش على رأسه، وخنقاه، وألقيا بجثته في حفرة المراحيض. ظن أهله أنه سافر خارج البلاد، وفي النهاية ذهبوا إلى إحدى العرافات التي أكدت أنه ما زال في «الكمب». فجاء وجهاء البلدة، وفتشوا في كل مكان، فتشوا عنه تحت أكوام الخشب والحديد في المستودعات، ولم يجدوا شيئاً. وفي النهاية وجدوا إن إحدى بلاطات الحفر الامتصاصية أزيحت من مكانها منذ وقت قريب. فتحوها، وكانت الجثة هناك. ظل هناك في الحفرة ثلاثة عشر يوماً إلى أن استطاعوا اكتشاف مكانه، وفي اليوم نفسه أقيمت له جنازة تليق بالشهداء شارك فيها كل أهالي القرى المجاورة. هل يفعلون بنا الشيء نفسه؟ ما هو المستقبل الذي ينتظرنا؟ هل يعود «بوكاج» فينتقم؟ أم ينتقمون منا بطريقة حضارية، بكلامهم وأغانيهم التي لم تعد أغانينا؟ ينتقمون منا بأخبارهم المبهرة بالسم والبهدلة؟

تحدث المذيعون الإسرائيليون عن الحرب كما لو أنها انتهت، وأن النصر الإسرائيلي قد تحقق، وأن الجنود العرب شُلت فاعليتهم، والأسلحة العربية

أصبحت بلا حول ولا قوة. ماذا نفعل في ظل هذه الأجواء! وماذا يفعل الجنديان اللذان بقيا في قيد الحياة؟! اختلفا في الطريق الذي يودان سلوكه، فالأول قرر أن يذهب إلى «رام الله» في أسرع وقت للالتحاق بزملائه، والانسحاب إلى الشرق، والثاني قرر أن يحمل بندقيته، ويختبئ في أقرب موقع من المدفع المقلوب، يتصيد الجنود الإسرائيليين حين يأتون، ينتقم لمقتل زملائه. قال إن هناك جنوداً آخرين سيفعلون مثله، يختبئون في الجبال ويقاومون الاحتلال. من الصعب التفكير بعمق في مثل هذه الأجواء، فالناس في حيرة من أمرهم، لا يستقرون على رأي، لكن المختار اقترب من الجندي هو وبعض الرجال، ورجوه أن يغادر المنطقة، فأهالي البلدة لا يعرفون ماذا سيجري لهم بسبب الدبابة التي في القرية والمدفع الذي لا يزال ممدداً قرب «الكوربة». رجوه أن يذهب عند أهله، أو أن ينسحب مع المنسحبين. رجوه أن يذهب إلى قرية أخرى إذا أراد. أخبرهم أنه سيتزوج من بنات القرية ولا يغادرها، سيعيش بعيداً عن مرأى الجيش، يلتقي بزملائه ويقاومون. رجوه أن يفعل كل ما يريد، المهم أن لا يبقى في القرية في هذه الفترة. أحضروا له ملابس مدنية، وبعض الطعام، وبعض النقود، وطلبوا منه أن ينجو بنفسه، وأن يسمح للآخرين بالحياة، وهكذا ذهب.

لم تعد المغارة آمنة. فهي تقع وسط القرية، بل هي جزء من ساحة بيت «الساوي»، تقع في حوشهم، كما أن أصحاب البيت، طلبوا من الناس أن يغادروها، حاولوا إقناعهم بذلك، بل اقترحوا عليهم مرافقتهم إلى بيارتهم التي تحتوي نبع ماء وبعض الخضار والفواكه. قالوا: كل ما عليكم عمله، هو إحضار بعض الطعام والكساء، ويمكن أن تقضوا كل عمركم هناك حتى يهوّنها الله. وقالوا: نحن سنترك البيت، وسنغلق المغارة، ولا مفر من البحث عن مكان آخر مثلنا. كان حديثهم مقنعاً إلى حد كبير، وكانت الخطوة الأولى أن تخلى الناس عن المبيت في المغارة. قال لي «حامد»:

– هذه المغارة ليست آمنة، والسبب ليس – فقط– أنها تقع وسط القرية، بل وأن سقفها من الصخر. لو كان سقفها من التراب، أو مغطى بالتراب

لأصبحت آمنة، سمعت من أبي أن التراب يمتص ضربات القنابل، يبطل مفعولها، ولكن الصخر يتفتت، ويسقط على رؤوس الذين تحته.

هذه المغارة هي جزء من المقبرة، فسطحها هو الآخر من الصخر، لذلك يستخدم كبيدر لمحصول الحبوب صيفاً، أما في غير هذه الأوقات فنستخدمه نحن الفتيان والصغار لنلعب هناك. لقد حافظ البيدر على دائريته رغم الموت ورغم صغر حجم المقبرة، فكلما اقترب الناس منه لحفر قبر، ردهم إلى الوراء، وإلا كان عليهم الحفر في الصخر، وهذا لم يحدث. البيدر محاط بالقبور من ثلاث جهات، وبقيت الجهة الجنوبية لتشكل غطاء المغارة، تلك التي اختبأنا فيها. كنا نعيش بصورة أو بأخرى أسفل المقبرة، فإذا كان الأموات ينامون أسفل السطح بمتر واحد، فقد كنا ننام أسفل منهم بعدة أمتار. وإذا كان هناك أموات فنحن كنا تحت الأموات. الخوف على الحياة هو الذي ألقى بنا في هذا المكان، الخشية من الموت هي التي أجبرتنا أن ننام هنا، فهل نخرج إلى الحياة بالحياة؟!

قرر أبي هو الآخر أن نرحل إلى مكان ثانٍ، إلى «عيون مارون»، حيث العديد من الكروم، التين والزيتون والعنب، كما أن هناك العديد من الأشجار المثمرة مثل الأجاص والتفاح والبرقوق، وهناك العديد من الخضروات مثل البندورة والفقوس واللوبيا والفاصوليا والملوخية وغيرها. كنا نذهب لنشتري الخضار والفواكه من هناك. حملنا معنا «بابور الكاز» وبعض الأكل، والشاي، وحملنا أغراضنا على الحمار، وافترشنا الأرض تحت الأشجار. شعرت بالخوف من الذهاب إلى هذا المكان، هذا المكان أخشاه لسببين: الأول لأنه يمر على الشارع الرئيس للقرية، ويمر على «الكوربة» التي انقلبت عندها الدبابة والمدفع، وتم قصف الموقع من قبل الطيران الإسرائيلي، لكن ما إن نجتازه حتى نصبح آمنين. أما السبب الثاني فهو أن المكان «مسكون» كما أعرف، هو مأوى للجن كما كنت أسمع من كبار السن، حتى من أصحابه، لكن ما حيرني أنهم كانوا «يعزبون» في الصيف هناك، يعيشون هناك، ينامون ويأكلون ويشربون ويبيعون منتجات أرضهم. أما أنا فرأيت ذلك

بعيني، وسمعت آثار الجن بأذني. كان أبي قد اكترى كرم التين المجاور، وكنا نذهب لحراسته نهاراً. كنت و «علي» و «عليا»، كان الوقت ظهراً، والشمس حارقة. شعرت «عليا» بالتعب، وقررت أن تنام، احتضنت «علي» ونامت. حاولت أن أفعل مثلهما، ولم استطع. أغمضت عيني، ولم أنم. جلست، ورحت أراقب الكرم من حولي. شعرت أني وحدي في هذه القرية، فلا شخص يمشي في الشارع المقابل، ولا راعي أغنام ينفخ في «شبابته». كانت شجرة الخروب في منتصف الكرم كما هي العادة، وأنا أخشى شجرة الخروب هذه، فالناس تقول إنها ملجأ للجن، قالوا إن سيدنا سليمان هو الذي كان يعرف لغة الحيوان والنبات، كان يسأل النباتات عن اسمها، يفتح يديه فتأتيه شجرة، يسألها: من أنتِ؟ فتقول: أنا شجرة تفاح، أنا شجرة لوز، أنا شجرة زيتون. وكان يباركها. أما حين جاءت شجرة الخروب بين يديه وسألها عن اسمها، سألها سؤالاً آخر: ما معنى اسمك؟ قالت: جئت لخراب هذا العالم. فلم يباركها. لم أر شيئاً في البداية وأنا أتطلع إليها، لكن بعد فترة، سمعت الشجرة تهتز بكل قوة، تصفق بأوراقها، ورأيت حيواناً ضخماً ينطلق مسرعاً منها، جسمه جسم ثور، ورأسه رأس غزال، وله جناحان كبيران يفردهما على جانبيه. أرعبني هذا المنظر، جمدت مكاني، لم أعد أستطيع تحريك يديّ أو رجليّ، ولم أستطع الكلام. دققت النظر فيه، فإذا به يقف، ويهز رأسه، كان يقصدني بالتأكيد. يدقق النظر فيّ من جديد، ويتحفز ليقفز عليّ. صرخت بأعلى صوتي، لم أعرف كيف فعلت ذلك، فإذا «عليا» تصحو ويصحو معها «علي». أخبرتهما بالأمر، لكنه كان قد اختفى. سقتني جرعة ماء، وقرأت بعض آيات القرآن.

(5)

كان الوقت ظهراً، واليوم كان الأربعاء، ومعظم الناس كانوا في بيوتهم، فإذا صوت قوي في القرية، يقول:

– جاءت النجدة، الدبابات والدوريات العسكرية تظهر من الجهة المقابلة، تتقدم من ناحية «النبي صالح»، من بين أشجار الأحراش، وتأتي نحو القرية.

اجتمع الناس قرب «الكوربة»، كان هذا الموقع يسمح للناس بكشف الطريق المقابل، فمن هناك كنا ننتظر الحافلة التي تأتي بأبي حين يذهب إلى «رام الله»، كنا نودعه في الصباح، وننتظره في الظهيرة. كنا نرى الحافلة وهي تمر بين الأحراش وهي تجتاز «النبي صالح»، وتصبح تحت «دير نظام» مباشرة، كانت تبدو سريعة وهي تسير بين الأشجار، لكن حين تقترب من «الكوربة» تصبح بطيئة، بحيث كان الفتيان يتعلقون بأطرافها ويصعدون على سطحها. أما الآن فهناك رتل من الآليات العسكرية يقترب. كان يتقدم ببطء.

ردّ أبي:

– اليهود لا يمكن أن يأتوا من هذا الطريق، يمكنهم أن يصلونا خلال نصف ساعة من الحدود الغربية التي لا تبعد عنا كثيراً، أما أن يأتوا من الشرق فهذا أمر غريب.

وقال «جامع»:

– سمعت الإذاعات العربية وهي تبشر بالنجدة، وتعد بالنصر، ويمكن أن تكون قوات أخرى قد وصلت، يريدون الذهاب إلى الحدود، يمكنهم أن يعوضونا عن هذه الدبابة المحترقة التي نراها.

وقال «عمي إبراهيم»:

– لا تستبشروا كثيراً، فكل شيء ممكن في الحرب، لن يطول انتظارنا

حتى نعرف من هم.

اقتربت الآليات من القرية، أصبحت على مشارفها، نزل الناس إلى الشارع، ونزل معهم «جامع»، وراحوا يرقصون مرحبين بالنجدة التي جاءت، خلعوا كوفياتهم ولوحوا بها في الهواء، وخلعت النساء «شاشاتهن» التي يغطين بها رؤوسهن، ورقصن في الشارع، غنين للعروبة وزغردن. تجمع بعض الصبية حولهم، وصفقوا ورقصوا، وظهر الناس من بين الحقول والتحقوا بغيرهم في الشارع. كان الجميع يرقص ويغني، ومن الشباب من ركض نحو الآليات لاستقبالها، اقتربوا كثيراً، إلا أن الآليات توقفت، وترجل منها جنود يحملون أسلحتهم بأيديهم، وقفوا وسط الشارع يحاولون منع الناس من الاقتراب، ومن الجنود من استحكم في السهول المجاورة، ركضوا بأقصى سرعة، واستلقوا على بطونهم، وأسلحتهم موجهة نحو الحشد.

ارتبك الناس قليلاً، فإذا كانوا نجدة لهم، وإذا جاءوا لتحرير فلسطين، فلماذا يتصرفون هكذا؟! لماذا يتصرف هؤلاء الجنود كأعداء! ابتعد بعض الناس وبخاصة أولئك الذين كانوا على الأطراف، وتوقف المتقدمون في أماكنهم، وخفّت أصوات الهتاف والزغاريد، إلا أنها لم تنقطع. بُهت الناس لما حدث، صدموا، فتصرفهم يدل على سلوك آخر من قبل الجنود. كسر الحيرة صوت جندي يستخدم مكبراً يأمر الناس:

– ارفعوا أيديكم إلى أعلى، لا أحد يتحرك من مكانه.

صمت الحضور، تسمروا في أماكنهم، تساءلوا عن السبب الذي جاءوا من أجله، فكان يمكن لهم أن يبقوا في بيوتهم، أو أن يختبئوا في الجبال وبين الأشجار، وعلى ينابيع الماء البعيدة. ما الذي أتي بهم إلى هنا، وفي هذا الموقف المخيف؟! ماذا سيفعلون؟! لا يستطيعون الهرب. فطلقة واحدة كافية لإنهاء حياة واحد منهم أو أكثر! هؤلاء يهود بالتأكيد، ويمكن أن يقتلوا الحضور جميعاً، يمكن أن يرتكبوا مذبحة كما فعلوا قبل عشرين عاماً، أو قبل أقل من سنة واحدة حين اقتحموا قرية «السموع» قرب الخليل، قتلوا جنوداً ونسفوا بيوتاً. أصبح الناس أصناماً في أماكنهم. لكن «جامع»،

استأنف رقصه، وصاح:

– لا تخافوا، هؤلاء جنود باكستانيون، أنا أعرف لغتهم، يتكلمون مثل الباكستانيين، وهم ربما لا يعرفون أننا عرب، يجب أن نستقبلهم، فالنجدة جاءت هذه المرة من باكستان، ارقصوا.

لم يصدق الناس «جامع»، ظلوا في أماكنهم حيارى لا يقوون على شيء، لا يقوون على الرقص ولا الغناء ولا الهرب. كانوا بالكاد يتنفسون، ويصدقون أنهم يقفون على أقدامهم، حتى أن بعضهم سقط على الأرض خوفاً. تطلع الناس إلى أعلى الجبل حيث أهالي «بيت اللو» يطلون من بين البيوت، وعلى أسطحها، وهم يلوحون بأيديهم، ويطلقون الصيحات. كنا بالكاد نفهم القليل مما يقولونه، لكن حركاتهم تعبر عن الفرح، فرحهم بأن النجدة عربية. شعرت بالخجل من موقفينا المتناقضين، فهم ما زالوا يعيشون الوهم، يغنون ويرقصون ويهتفون. لم يقو أي منا على إخبارهم بالحقيقة المرة، وكيف نفعل ذلك. فجأة إذا ببعض الشباب بدأ بالنزول مسرعاً نحونا، كانوا كمن يتزحلقون على سفح الجبل لسرعة انحداره. فإذا بصليات من الرصاص توقفهم، وتمنع عليهم فرحتهم. التصقوا بالأرض وراحوا يزحفون إلى أعلى.

تقدم الجنود قليلاً، وسمعت طلقات نار في الهواء، تهدد الذين ابتعدوا بالرجوع، فبنادقهم لم تكن كلها موجهة نحو الناس في الشارع، بل نحو كروم الزيتون القريبة، ويبدو أنهم أحسوا بأن هناك من يحاول الهرب، أو ربما يملك بعض منهم سلاحاً. نادى الجندي «جامع»، لم يناده باسمه، بل أشار إليه أن يقترب وهو رافع اليدين. أشار إليه أن يتوقف، وأن ينبطح أرضاً، وفعل. أمره بأن يرفع يديه ورجليه إلى أعلى وبكل قوة يستطيع، وفعل. كان منظره مضحكاً لو أن الموقف غير هذا الموقف، بل كان منظره مرعباً يهدد أي واحد من الواقفين بعمل الشيء نفسه. اقترب ثلاثة جنود منه، الأول يشهر سلاحه، ويوجهه نحو «جامع»، والاثنان يفتشانه، فتشوا جيوبه، لم يجدوا شيئاً سوى علبة تبغ حديدية، حملوها ووضعوها جانباً.

أمروه بالوقوف ثانية، فوقف. التف الجندي الذي يشهر سلاحه من خلفه، ألصق فوهة البندقية بظهره، وأمره بأن يفتح العلبة. فتحها، وشرح لهم أن هذه علبة تبغ للف السجائر. أخذها الجندي، أفرغها من محتوياتها، وألقاها بعيداً. اقترب جنود آخرون من الموقع، وراحوا يضربون «جامع» بكل قوتهم، ضربوه وهو يصيح:

– من شان الله.

قال أحدهم:

– أتهتف للعرب، وتدعو بالنصر على إسرائيل؟

صاح:

– اعتقدت أنكم باكستانيون.

قال الجندي وهو يضربه:

– ومن أين عرفت «الباكستان»!

أجاب «جامع»، وهو يستعطفهم:

– بالله عليكم اتركوني، عندي عائلة وأولاد.

لم يتركوه، بل أوسعوه ضرباً أمام الناس جميعاً، ضربوه بأيديهم، وبأرجلهم، وبأعقاب بنادقهم. صرخ بصوت مبحوح طالباً أن يرحموه. طلبوا إليه الوقوف، فوقف، وطلبوا إليه أن يخلع ملابسه قطعة وراء أخرى. تطلع في الجندي قليلاً علّه يعدل عن طلبه، لكنه لم يفعل، بل أصر عليه. خلع ملابسه، وفانيلته، وتوقف كما لو أن طلب الجندي قد نُفذ. أصرّ الجندي على خلع كل شيء، وطلب إلى الناس بمكبر الصوت أن يوجهوا أنظارهم نحوه. لم ينصع الناس له، دقوا رؤوسهم في الأرض، خوفاً وحرجاً. تشاهد الكثير منهم، قالوا «أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله»، فلحظة الموت يمكن أن تكون الآن أو بعد الآن بقليل، وقرأوا بصمت بعض آيات من القرآن، و «جامع» يخلع سرواله. كان الطلب الأخير إليه هو أن يهرول بين الناس تجاه القرية. طلبوا إلى الناس أن يبتعدوا عن الشارع، وأن يصطفوا على جانبيه ويصفقوا لِ «جامع». ابتعد الناس، ولم يصفقوا. هرول «جامع»

في الشارع، لحقته الآليات. حاول أن يهرب بين أشجار الزيتون، لكن طلقات النار في الهواء منعته. استمر يهرول. مر بجانب الدبابة المحروقة والمدفع النائم، وظل يهرول. أطلق الجنود صليات عديدة من الطلقات وهم على «الكوربة»، تطلعوا نحوها قليلاً، وطافوا به في القرية، وتركوه عند المفترق. وراحوا نحو الغرب.

تجمع الناس في الشارع من جديد، بمن في ذلك الذين اختفوا حين اقتراب الجيش، كانوا رجالاً ونساء وأطفالاً وشيوخاً وشباباً. تجمعوا دون أن يطلب أحد منهم ذلك، لم يقو أحد منهم على النظر في عيني الآخر، التصق أبناء العائلة الواحدة في كتل صغيرة، انتظر أحدهم الآخر حتى أصبحوا جماعة، كانوا قرب «عين البلد»، ورغم جفاف حلوقهم، لم يتوجه أي منهم إليها، ظلوا على عطشهم، وساروا تجاه القرية، على الشارع الرئيس، كانوا يشكلون ما يشبه المظاهرة الصامتة، لم يتكلم أي منهم، وإذا ما أطلق طفل صيحة، حاولت أمه أو أخته أن تسكته، تشده إلى صدرها، فيصمت. كانوا مصابين بالصدمة، منكسي الرؤوس، وأفواههم مغلقة تماماً. ساروا ما يقرب المائة متر، فإذا هم أمام المفترق، الطريق الترابي والطريق المعبد، لم يترددوا حين صعدوا طريق الحمير، فهو أقرب لهم، وهو الذي اعتادوا السير فيه وهم يرجعون من حقولهم، وهم يحملون الماء من «عين البلد». تعثر بعضهم بالحجارة الكبيرة التي تملأ الشارع، المغطاة بروث الحمير والبقر والماعز الجاف. مشيت مثلهم مع الماشين، تمنيت أن يحمل كل واحد منا حجراً يلقيه على طرف الطريق، إذا فعلوا ذلك بضع مرات يصبح الشارع نظيفاً تماماً. لم يفعل أي منا ذلك، فلماذا يرفعونها؟! هل ستأتي الدبابة من جديد وهي تجر مدفعها! أننظفه لدبابات العدو التي ستأتي بعد حين؟! لا، ربما ننظفه لنا ولحميرنا وهي تحمل الماء على ظهورها، لكن الناس لا يعرفون أي حياة سيعيشون، وأي مستقبل سيكون، وهل سيبقون في هذه القرية أم لا. كانت الحجارة تتزحلق من تحت أرجلهم، والناس يترنحون بين هذا الحجر وذاك. طال المشي على هذا الطريق، طال أكثر مما قدرت. هل كانوا

يودون التأكيد على الطريق أم أن الحجارة والموكب الكبير أعاق حركتهم؟! انحرفت بنظري نحو الشرق دون أن يشاهدني أحد، ولا أظن أن أحداً فعل مثلي، كانت «الكوربة» ما تزال مكانها، وآثار الدبابة والشاحنة المحروقة وطرف المدفع الذي يغمس رأسه في التراب. كان المنظر مرعباً أكثر مما قدرت، انزلقت الحجارة من تحت قدمي، وازنت جسدي بسرعة، وانتظمت في الموكب. وصلنا مفترق القرية، والموكب يقل، فكل ينسل إلى بيته، ويغلق الباب وراءه.

اقترب الليل، حمل كل سكان القرية أغراضهم، واختاروا أماكن بعيدة يقضون فيها ليلتهم، فالحرب في «بيت اللو» انتهت، والاحتلال أصبح أمراً واقعاً، ومعظم ما جاء في الإذاعات العربية كان كذباً، وتحققت نداءات الإسرائيليين وبياناتهم. رحل الجميع من القرية إلى الكروم التي حولها، لم يبق في القرية سوى الكلاب، حاولت اللحاق بأصحابها، لكنهم زجروها وأمروها بالعودة. أصبحت القرية مسكناً للكلاب. أخذ الناس معهم بعض دجاجاتهم وحميرهم، ولحقت بهم قططهم. الكلاب وحدها ظلت هناك. قالوا: إن الكلاب تفضح الناس، وهم يريدون الستر، والليل ستر، والليل موحش ومخيف. الكلاب تصول وتجول في القرية، في شوارعها وأزقتها، تنبح بصوت غير الذي كنا نسمعه من قبل، أصبح متواصلاً بدل أن يكون متقطعاً، حزيناً لا فرحاً، مستجدياً لا متحدياً، مستسلماً لا مدافعاً أو مهاجماً. كانت تسير جماعات جماعات، تود هي الأخرى أن تحمي نفسها. كانت تركض نحو لا شيء، وتتوقف عند مفترقات الطرق، وتنبح دون أن تجد من يزجرها أو يشجعها. توقف بعضها قليلاً عند طرفي الشارع والأزقة، ترفع إحدى رجليها وتبول. كانت الكلاب كثيرة، تبولت في كل مكان، عند أطراف البيوت التي هجرت، وعند أبوابها، وعند المقبرة، وعند الأشجار القريبة، وعند «المزبلة»، وعند البيادر، وعند أبواب البقالات المقفلة، وعند الجامع، وعند «سقائف» اللاجئين، وعند بيوت أهالي القرية، وعند «الحواكير». تبولت في كل مكان، وهي تصعد الطريق إلى القرية، وهي تنزله. تبولت وهي رائحة، وهي غادية.

نبحت بأصواتها الجشّاء والمتوسلة، وطافت الطرقات كلها، وتبولت في كل مكان. سألت أمي:

– لماذا تبول الكلاب في كل مكان؟

– الكلاب تصنع حدودها مثل الضباع.

– وماذا تفعل الضباع؟

– تبول على صيدها، لتؤكد لنفسها ولغيرها أن هذا الصيد ملك لها وحدها، يقع ضمن حدودها.

– يقولون إن بول الضباع يخدر الشخص الذي يمسه.

– نعم، فالإنسان يستطيع معرفة أوكار الضباع من رائحتها النتنة.

– ما هي الحدود؟

– نحن نحدد بيتنا بالسور من حوله، فالسور يعني أن المنطقة من داخله تخصنا نحن، وأن المنطقة خارج السور تخص غيرنا، وهكذا تفعل الكلاب.

– وهل الحدود بين الدول مبنية على شكل سور بيتنا.

– لم أر سوراً حين ذهبت إلى الحج، ولكن كان هناك جنود من الجهتين يؤكدون أن هذا هو الحد الفاصل بين دولة وأخرى.

– لكننا نمر من أي مكان، لا يهمنا أين تبولت الكلاب، فلمن تصنعه؟

– تصنعه لأمثالها، فهي تعرف حدود بعضها بعضاً، إنها على الأقل تقول: الكلاب مرت من هنا.

– هل هذه هي لغتها؟

– وبعدين معك؟! ألم تسمع نباحها، إنها تخاطب بعضها بعضاً بلغات مختلفة، منها رائحة بولها.

– ولماذا لا نتخاطب نحن – أيضاً– بهذه اللغة؟

– حل عني، واتركني بهمي، لما تكبر، تعلم لغة الحيوان لتفهم ماذا تفعل.

تصورت أني أفهم لغة الحيوانات، وأفهم ما تقول، عندها سأصبح مثل سيدنا سليمان، أفهم لغتها، وآمرها، ولا احتاج أن أضرب الحمار ليمشي،

ولا أحتاج للتحايل على العصافير للإمساك بها، يكفي أن أسمعها تخبر بعضها بعضاً حول المكان الذي ستبيت فيه، وأمسكها، وأداعبها، لن أذبحها، فأنا أحب أصواتها وهي تغني، وأحب تجمعاتها على الأشجار عند المساء. من أين عرفت أمي أن الكلاب تقصد ما قالته؟! لا أدري، لكني سمعتها تقول حين تسمع صوت حمامة، فأمي تطرب لصوت الحمام، تطرب لِ «برجمتها»، وتحزن لِ «جوحها» على صغارها الذين فقدتهم، تقول: يا جوختي حطيتها، ما لقيتها. وسمعتها تقول حين تسمع القطط تموء في نهاية الشتاء: إنها «تشبط». وحين تأتي في الليل تقول: افتحوا الباب لها، إنها تشعر بالوحدة. وحين تموء وهي في الداخل، تقول: اخرجوها، تود قضاء حاجتها.

رحل الجميع من القرية، لم يبق فيها رجل ولا امرأة، ولا كبير ولا صغير، لكن بعض الرجال كانوا أقرب إلى القرية من غيرهم، خشوا أن تتم سرقة البيوت، ولم يشكوا في «جامع» هذه المرة، يكفيه ما هو فيه، إنه لا بد يعيش الآن مأساة، رغم أن أي إنسان كان معرضاً لمثل هذا الضغط والابتزاز من قوات الاحتلال، وهم من جهتهم لم ينظروا إليه وهو عارٍ هو واحد منهم رغم أن الرجال الشجعان لا يعتبرونه واحداً منهم، لكنه ابن القرية، وجاءت «الدقة فيه» هذه المرة، وربما تجيء «الدقة» القادمة في أي من الرجال الآخرين. لم يبلغ أي من أبناء القرية عن سرقة حدثت في بيته، هذا يعني أن «جامع» لم يسرق شيئاً. لقد قدر الظرف الذي تعيشه القرية، فالحرب لها قوانينها الخاصة، كما للسلام قوانينه الخاصة أيضاً. ظلت عيون الباقين في القرية موجهة نحو عائلاتهم في البساتين، وكذلك نحو بيوتهم التي لم يبق فيها أحد. راقبوا الكلاب وهي تحوم حول البيوت وتنبح وتبول، وكلما اقتربت منهم زجروها، فارتدت، وهكذا ظلت الكلاب لا تستطيع مغادرة حدود القرية، كانت مثل الكرة، تُقذف إلى مكان فترتد إلى الجهة المقابلة. كانت القرية محاصرة بالرجال والنساء والأطفال والشيوخ، وكانت مليئة بالكلاب.

حمل «عمي إبراهيم» بعض أغراضه، وقرر أن يتوجه إلى المكان الذي

نبيت فيه، «عيون مارون». حمل بعض الطعام، ووضع المذياع في الكيس، وسار وراءنا، كان مجرد وجوده معنا يعطي الأمان لنا جميعاً، وكان الناس يتوجهون نحو النبع بهدوء وبانكسار. قطع مذياع «عمي إبراهيم» الصمت، فإذا صوت «فهد بلان» يصيح: صح يا رجال. ويرد عليه «الكورس»: أيوه صح. يتوقف «عمي إبراهيم» في الطريق، يفتح الكيس، ويغلق المذياع من جديد، يحمل الكيس على ظهره، ويمشي، فإذا الصوت يأتي مرة أخرى: حنا نصالح اللي يصالح ونحارب اللي يحارب، صح يا رجال ... أيوه صح. يتوقف «عمي إبراهيم» مرة أخرى، يفتح الكيس ويغلق المذياع، ويسير. تمر فترة من الزمن لا أستطيع تقديرها، فإذا المذياع يفلت من عقاله، وهو يغني: حنا لما تنادي الحرب، لا نخشى جون ولا ضرب، نشرب دم الغاصب شرب، ونرده مهزوم الحيل. يتوقف «عمي إبراهيم»، يحمل الكيس عالياً ويلقي به أرضاً. يتوقف «فهد بلان» عن الصراخ. يفتح «عمي إبراهيم» فمه، ويلعن الحرب، والضرب، والسيف، والصيف ويسبها. يحمل الكيس ثانية، فإذا «فهد بلان»، يصرخ: حنا للسيف، حنا للويل، حنا للويل يا ويل يا ويل يا ويل يا ويل يا ويل. يلقي «عمي إبراهيم» بالكيس على الأرض بكل قوته، يفتح الكيس، يخرج المذياع، ويحمل حجراً كبيراً، ويضرب المذياع بكل قوته، و «فهد بلان» يصرخ: صح يا رجال. ويرد عليه الكورس: أيوه صح. و «عمي إبراهيم» يستمر في تحطيم المذياع ويصرخ بأعلى صوته هو الآخر «صح يا رجال ... صح يا رجال»؟، ولم نجرؤ أن نرد عليه ونقول «أيوه صح» حتى توقف الصوت تماماً، فقال الناس في سرهم: أيوه صح.

لم نسمع أذان العشاء تلك الليلة، فالمؤذن هجر بيته وقريته كما فعلنا نحن. لم يلعب الصغار كما يحدث عادة، حاولت بعض النسوة جمع الحطب لتسخين ماء، و «تحميم» أولادهن، لكن صاحب العين منعهن من ذلك. قال: يمكن أن يأتي الجيش، يشم الرائحة، أو يرى النار مشتعلة ويخرب بيوتنا، خلينا على وسخنا. وظل الناس «على وسخهم». لم أتوقع أن ننام هذه الليلة، فالصحبة كبيرة، تجمع كل أبناء حينا تقريباً، رحنا نتمشى قليلاً بين الأشجار،

وصوت خرير المياه من حولنا. أنا أخاف الماء بقدر ما أحبه، فلا شيء يروي ظمئي مثله، لكن الماء هو منبع الشياطين والجن، وهو مأوى لها. تطلعت خلسة أكثر من مرة نحو منابع الماء، فمن هذه العين كنا نسمع في الليل أصواتاً مخيفة، أشبه بأصوات الطبول، وحين سألت أبي مرة، قال: يقولون هذه أصوات الجان. سمعت - أيضاً- من الشباب أنهم حاولوا الاقتراب ليلاً للتعرف على الصوت، لكنهم كلما اقتربوا منه، انتقل إلى الجانب الآخر من الجبل. أيقنوا ما هم فيه، وما هو أمر الجن والشياطين، فرجعوا إلى القرية مسرعين. أخبرتني أمي أنها كانت قد سلكت هذا الطريق فجراً، للتحطيب، فإذا عدد من الجن قد تجمعوا فيه، وأغلقوه عليها. كانوا يلبسون الثياب البيضاء من أخمص أقدامهم إلى أعلى رؤوسهم، حتى أنها لم تميز وجه واحد منهم. قالت: شعرت بالخوف والرهبة، ولم أقو على الحركة، فقرأت سورة الفاتحة، فإذا هم يبتعدون، ويقتربون من نبع الماء ويتوضأون، اقتربت أنا الأخرى من شجرة زيتون، وصليت ركعتين لله تعالى، ولم أرهم من بعدها. تطلعت خلسة نحو منابع الماء، كنت أحاول اكتشاف الجن في هذا المكان، فالجن أرعبتني وأرعبت الكثيرين من قبلي، فتياناً مثلي، ورجالاً ونساء. لم أر شيئاً. أغمضت عيني أكثر من مرة، علني أراهم، كنت أود ذلك وأنا بصحبة «حامد» والآخرين، لكني لم أعثر عليهم، وبدلاً من ذلك سمعت نقيق الضفادع وهو ينبعث من حول الماء، كان صوتها يزداد كلما قلت حركة الناس، وينبعث من أماكن أخرى كلما اقترب أحد من مصدر الصوت. كانت الأصوات تلك تؤنسني، فهي تقوم مقام الكلاب في الأحياء، تنذر الناس باقتراب أحد ما من أطراف العين، وكلما ارتفع صوتها شعرت بالأمان أكثر، فهي على عكس الكلاب تصمت عندما يقترب الناس من أماكنها، وتنقنق عندما تشعر بالأمان. أنا أعرف لماذا تصدر كل هذه الأصوات. أخبرني بذلك حامد من قبل: قال إنها تنادي أزواجها وأولادها ليناموا قربها. إذن هي تناديهم مثلما تنادينا أمهاتنا وأخواتنا الكبار. هي على الأقل تستحم، ولا تبقى على وسخها، وهي تشعر بالأنس كلما نادت مثيلاتها.

تساءلت إن كان الجن يسكن الضفادع، وما الأصوات التي نسمعها إلا أصوات الجن والشياطين. همست في إذن «حامد» إن كان لتساؤلي معنى. قال: بعدين معك؟! ألا ترى أن الناس لم تعد تخشى لا جناً ولا شياطين سكنت في الماضي هذه العين! إنها تخشى الآن الشياطين الذين جاءوا على ظهور دباباتهم، الذين قصفوا الدبابة والشاحنة على «الكوربة»، وأرغمونا على النوم في المغارة وتحت الأشجار، هكذا أخبرني أبي حين هاجروا من «بيت نبالا»، ناموا تحت الأشجار وقرب منابع المياه، وها نحن نعيش التجربة مثلهم، المأساة هي أنهم يعيشون التجربة نفسها للمرة الثانية.

عيون الماء هذه تسحرني، فهي ليست نبعاً واحداً، إنها ينابيع متصلة، ينز ماؤها من تحت الصخر ومن وسطه، فتتجمع المياه في قناة قامت المياه بصنع جزء منها، وقام أصحابها بصنع الجزء الباقي، يغطي بعض ينابيعه الصخور، ويغطي بعضه الآخر أشجار العليق، فلا تعرف أولها من آخرها. إنها سطر ينابيع وبطبقات مختلفة. هذا السطر يسحرني، وتسحرني قنوات الري التي تجدها أينما تجولت في البستان، لتصل أشجار التفاح والأجاص والليمون، تقفز فوق سلسلة صخرية لتصل الأشجار البعيدة في الجهة الشمالية والغربية من الينابيع، بينما تقف أشجار الزيتون فوق الصخور دون أن تنال من الماء الذي يسيح من تحتها. هذا المنظر يشعرني بالرهبة، فاكتظاظ الأشجار والنباتات حول الينابيع يرغمني على الخشوع، والماء المنساب من تحت أقدامي يحثني على الطهارة، ورائحة الطيون والليمون تبعث فيّ الصمت، ونقيق الضفادع يلقي في جسدي القشعريرة والرهبة.

صحيح ما قاله «حامد»، ألا أذكر أن الشباب الأكبر سناً، كانوا يتسابقون أيهم يستطيع الوصول في فصل الشتاء إلى هذه العين! الكثير منهم كان يخاف، والقليل استطاع الوصول. كانوا يتحدّون الليل والجن والشياطين. كان عليهم إثبات أنهم وصلوا إلى هناك بأن يأتوا بإمارة، وكانت الإمارة فرع شجرة «طيون» أو بعض الماء، وكان الشباب يستطيعون التمييز إن كان فرع «الطيون» أو الماء من «عيون مارون» أم لا، يميزون «الطيون» من رائحته

وملمس أوراقه، ويميزون الماء من طعمه، أما الآن فالناس يتجولون في المكان الذي خافوه منفردين، الأفراد يخافون، والجماعات تشعر بالأنس. نادت عليّ أختي «عليا»، تناولنا بعض الأكل، تحت ضوء القمر، وبعض الطائرات تروح وتجيء في الجو.

رأينا في الشرق طائرتين تدوران، تعلوان في السماء، ثم تنزلان نحو الأرض، تلاحقان بعضهما، تختفيان وراء الجبال، ثم تعودان إلى الظهور، كان المنظر لافتاً للانتباه. لم نستطع تحديد الطائرتين سوى من خلال صوتيهما، ومن خلال ضوءيهما البعيدين. راقب الجميع ما يحدث هناك. الطائرتان لا تملان الحركة. سألت عمّا يحدث. قال رجل:

– ربما ما تزال المقاومة مستمرة والمعركة لم تنته، فالطائرتان تقاتلان بعضهما بعضاً.

سألت:

– ولماذا لا تلقيان بقذائفهما لتدمر إحداها الأخرى؟

– يبدو أن ذخيرتيهما نفدت، وهما تريدان أن تحطم واحدة منهما الأخرى، أو تتحطم الاثنتان معاً.

– وهل تتناطحان كما تفعل الكباش؟

– نعم.

– لكن المعركة تختلف، عندها لا يكون هناك منتصر، فأنا أعرف أن المناطحة تنفع بين الكباش، لكنها لا تنفع بين السيارات مثلاً، وأظن أن النتائج ستكون وخيمة على الطائرتين.

– لا، هم يعرفون ما يقومون به.

اقترب «عمي إبراهيم» حين سمع تفسير الرجل لما نراه، وقال:

– بلا مسخرة، هاتان طائرتان إسرائيليتان تستعرضان قوتهما، إنهما تقومان بألعاب بهلوانية كما يسمونها.

ساد الصمت من جديد، واستمر الناس في مراقبتهما وهما تحومان حول الجبال وبينها ووراءها، والنساء ينادين أولادهن لتناول وجبة العشاء،

والوجبات متشابهة عند كل العائلات: زيت وزعتر، وزيتون، وجبن. قطع الصمت صوت دبابة تقترب من المكان الذي نحن فيه. كان الصوت يعلو، ويعلو، وضوء قوي مثل حزمة يلوح في الهواء. اقتربت الدبابة أكثر في الطرق الترابية، والكشاف الضوئي يمسح أشجار الزيتون شجرة شجرة، يتوقف لحظة عند مكان ما، ثم ينتقل إلى الآخر. اختفى الناس، تواروا وراء الأشجار والصخور، وسمعت بعض أصوات الحاضرين ينادون على أولادهم، أن يلتصقوا بهم، أو أن يقفزوا إلى أماكن أكثر أمناً. الدبابة تقترب، تقف على أعلى الجبل، وتفتش عن شيء ما. لحقت بها دبابة أخرى، وأخرى، وراحت كل منها تبحث عن بشر. اختبأنا، نحن الآخرين، في أماكن بعيدة عن مرأى الدبابة إن أطلقت النار. اختبأنا تحت السلاسل الحجرية، وبين الأشجار، وبين أشجار العليق. لم يشعر أي منا بأشواك الأشجار وهي تخز أجسادنا. كان هناك هم أكبر، وهو المحافظة على حياتنا. كانت الأضواء الثلاثة تتحرك في كل جانب، وكنا نتطلع نحو الأماكن التي يضيئونها، كان باستطاعتنا رؤية كل شيء تحت الأشجار، وفي الكروم، وتحت السلاسل الحجرية. كل شيء يصبح واضحاً جداً، المكان يصبح نهاراً، والمختبئ هناك لا يستطيع إخفاء نفسه. طال الزمن ونحن على هذا الحال. كتمنا أنفاسنا، وتهاوت قلوبنا، وارتخت أعصابنا، وجمدنا في الأماكن التي نختبئ فيها. أصوات الدبابات تعلو، توحي لنا بأنهم قادمون لا محالة. هرب بعض الناس إلى قاع الوادي، حملت النساء صغارهن، ووضعن أياديهن على أفواههم لمنعهم من البكاء. الأضواء تطوف المكان، تمشط المنطقة شبراً شبراً، والناس يلوذون بالصمت المخيف. لحظة فإذا الدبابات تدور، وتبتعد، والأضواء تفتش في منطقة أخرى، ثم تختفي، وتعود إلى الطريق الرئيس، وتترك القرية.

حان موعد النوم إن كان له موعد، لم أرد أن أنام، وكذلك «حامد» والآخرون، لماذا ننام! أشعر بالإنهاك وأشعر بالقلق والخوف. ماذا لو أتوا ليلاً ونحن نائمون وقتلونا واحداً واحداً! ماذا لو كانت «زيارتهم» هذه هي

مجرد جولة استطلاعية؟! هل رأوا أحداً؟! إذا كانوا يعرفون أن ليس هناك أحد، فلماذا يأتون إلى هذه المنطقة؟! لا بد أنهم يعرفون، وربما سيعودون بعد أن نهدأ وننام، يفاجئوننا ونحن نيام، فيحملوننا كما يحملون الأموات، ويلقون بنا في مكان لا نعرفه، أو يقتلوننا هناك. لا أريد النوم، ليأتوا ويأخذوني وأنا يقظ، وأنا بكامل قوتي، وبكامل وعيي، إن أتوا ونحن نيام فهم غدارون، الحرب غدر كما يقول الكبار. الإذاعات العربية تغني للحرب وتلقي الخطابات منذ فترة طويلة، ولم أسمع من إذاعة إسرائيل أنها تفعل الشيء نفسه، والكبار علّمونا «المباطحة» كمبارزة بين الفتيان، وهذا ما يفعله الشباب أيضاً، حتى الكبار يفعلون ذلك عندما يتصارعون، «المباطحة» تكون وجهاً لوجه. هذه اللعبة لها أصولها، لها وقت عند البداية، ولها نهاية، الكبار هم الذين يحددون بدايتها ونهايتها.

مرة كنت عائداً من المدرسة بصحبة الكبار، وكان فتى في مثل عمري ضخم الجثة، قوي، يحثه الكبار على مبارزة أي شخص في مثل عمره أو أكبر منه، وكان يستغرق الأمر منه مجرد ثوانٍ فينتهي الصراع لصالحه، يشجعه الكبار على المزيد من المقابلات وفي كل مرة يكون هو الفائز. خشيت أن يأتي دوري، فظللت وراء الكبار أراقب اللعبة وكأني واحد من المراقبين، وكانوا يصفقون له كلما «بطح» واحداً. كنت أود أن نقطع المسافة تلك بسرعة، أصل إلى البيت ولا يتنبه إلي الكبار، ولا يأتي دوري، ووجدت أن من العيب أن أنسحب من الموكب، لو فعلت لأدرك الجميع ما أنا فيه من اضطراب. وفي لحظة ما لا أعرف كيف أتت، أشار الكبار إليّ، كان الدور دوري، فماذا أفعل؟! حرت، كان من السهل عليّ أن أعلن استسلامي قبل بدء المعركة، وبذلك تعلن النتيجة قبل بدايتها، وكان من الصعب عليّ قبول المبارزة، لا أعرف كيف فكرت، فإذا أنا ألقي بحقيبة الكتب جانباً معلناً القبول. صاح كبيرهم أن المعركة قد بدأت، وراح الآخرون يشجعون الفتى الضخم. صممت أن أصمد، صممت أن أبذل قصارى جهدي، أنا أعرف أني لا أستطيع التغلب عليه، لكن المطلوب مني أن أمنعه من التغلب عليّ،

أو على الأقل أن أطيل من وقت المبارزة. أنا قبلت المبارزة، ولا مفر سوى الصمود، سوى بذل الجهد والإبقاء على عمل عقلي واتزانه. التشجيع يأتي من كل جانب، الجميع يشجعونه وأنا بلا مؤازر، طال الوقت، يا الله كم مر من الوقت وأنا أحاول تجنب أن يعرقلني بإحدى رجليه، أو يجرني بيديه القويتين. شعرت أن كل طلبة المدرسة التفوا حولنا، أنا في المركز والجميع في المحيط، وأنا أقاوم، ليس المطلوب مني سوى المقاومة. شعرت بمرور الوقت أني أكثر ثقة بنفسي، فهو تغلب على كثيرين قبلي، كانوا أقوى مني كما يقولون، وبدأت أضع خططاً للتغلب على هذا الضخم. من يكون هذا؟! فكرت، إنه مجرد طالب «صايع»، لا يعرف القراءة والكتابة، ولا يحمل كتباً، ويعصي والديه. إنه مجرد مختل عقلياً، ولهذا اختاره الكبار كلعبة يتسلون بها في الطريق. أيستطيع التغلب عليّ؟! لا يمكن أن يفعل ذلك. شعرت بالثقة، وشعرت بالإرهاق، ورحت أركز فكري في الخطط للتغلب على هذا الثور، صرت آخذه شمالاً ويميناً، وفعل هو الآخر بي الشيء نفسه. أنا الآن محط أنظار الجمهور، في مركز الدائرة وهم حولي، وبدل أن أوصم بأني المهزوم، لماذا لا يسمونني البطل الصامد. شعر بالتعب كما شعرت أنا، وشعر أن هناك شخصاً يمكن أن يتغلب عليه، شدّ جسدي وشددت جسده، دقق عينيه في عينيّ، وضع مقدمة رأسه في مقدمة رأسي حتى لامس أنفي أنفه، وفعلت أنا الآخر مثله، وتسمرنا في وقفتنا دون أن يستطيع أحد التغلب على الآخر، فإذا الكبار يهتفون لنا ويعلنون تعادلنا. حملت حقيبتي بثقة، ورحت أسير كما الكبار. لو أتوا نهاراً، أو ونحن يقظون، فسأقترح عليهم المواجهة «مباطحة»، وسأصمد أمامهم كما صمدت أمام «الثور» الذي واجهته ونحن عائدون من المدرسة، وسأقترح على «عمي إبراهيم» أن يعلن النتيجة سواء ربحت أم خسرت. أما إذا أتوا ليلاً فسيقتلوننا ونحن نيام، وهم الذين سيعلنون النتيجة. يعني هم الطرف في المبارزة وهم الحكم في الوقت نفسه. هل هذا هو العدل؟!

أنا لا أحب النوم، ولا أحب النائمين، نقضي ثلث وقتنا فيه، لا نفعل شيئاً وأصوات الشهيق والزفير تعلو وتنخفض. كم من مرة فاجأنا أحدهم وهو نائم وصرخنا به، ليقفز من نومه مرتعداً. ينام الواحد منا مثل القتيل كما يقول أبي. يأتي الآخرون ويقتلونني، وأصبح قتيلاً بدل أن أكون مثله. أنا أكره الموت، وأكره النوم لأنه مثل الموت. كم من مرة سمعت أن فلاناً نام في المساء، ووجدوه في الصباح ميتاً. كثيرون ماتوا وهم نائمون ليلاً أو نهاراً. أنا لا أحب الليل، لأن النوم يكون فيه، ويكون الموت فيه. وأكرهه لأن الميت يكون في وضع النائم، ويضعونه في القبر نائماً، ويحلف الأحياء بنومة آبائهم وأجدادهم. كثيرة هي المرات التي حاولت فيها ألا أنام خشية أن أموت، يأتي ملك الموت والإنسان في أضعف حالاته، حين يكون مريضاً أو نائماً، المرض والنوم مترادفان للموت. لماذا نقتل التعب بالنوم؟! يا الله، لماذا خلقت الحياة مرتبطة بالنوم؟ هل يعود اليهود على ظهور دباباتهم ونحن نيام في الليل، وعلى نبع «عيون مارون» المسكونة بالجن والشياطين؟! لكني نمت، ووجدت في الصباح أن الموت لم يأتِ ليلتها.

سألت «حامد»:

– بماذا حلمت الليلة؟

– لن أقول لك، فهناك أحلام تظل سراً بين المرء وذاته.

– ألن تذهب إلى الشيخ حتى يفسره لك؟

– لا، فأنا أعرف رده.

– هل ستعيش المستقبل بأمان؟

– أظن الجميع يودون ذلك.

ـ هل يعني ذلك أنه لن يكون لك أعداء في المستقبل؟

– هذا ما آمله.

– هل يعني أن هذا العدو سيرحل قريباً؟

– سمعت من الجدات، أن العدو يمكن أن يبقى سبعة أيام أو سبعة أشهر أو سبع سنين.

– وهل من الممكن أن يبقى سبعين سنة؟

– لا أعرف، لكني آمل ألا يبقوا دقيقة واحدة.

– هل البنات والنساء يحلمن مثل حلمك؟

– أظن أن الجميع يودون أن يروا مستقبلاً أكثر أمناً.

– ولكن بماذا يحلمن؟

– سنتحدث في ذلك فيما بعد.

– هل يعني ذلك أنك تعرف؟

– سمعت بعض الأشياء، وأريد التأكد منها.

– هل تعتقد أن هذا النوع من الأحلام سيزداد بين الناس؟

– نعم، ولكن لماذا تسأل كل هذه الأسئلة؟ يبدو أنك حلمت بشيء ما، ما هو؟

– لن أقول لك، لكني أتمنى أن يكون مستقبلنا أفضل من حاضرنا، أن نعيش بأمان، وأن لا يكون لنا أعداء في المستقبل، ولن أذهب إلى الشيخ لتفسير حلمي.

(6)

كان الوقت ظهراً، واليوم هو الخميس. رجع معظم الناس إلى القرية كما يحدث عادة في مثل هذا الوقت. تطلعوا في الطريق بحذر، ومروا بسرعة حين قطعوا الشارع، خاصة عند «الكوربة». لم أستطع الالتفات نحو المدفع والتدقيق فيه أو في الدبابة المحروقة. تجنبت أن يحدث ذلك خشية أن يراني أحد. ربما يكون الجنود الإسرائيليون هناك، ربما هم الآن بين الأشجار. ربما سيطلقون الرصاص نحونا في أية لحظة. الأفضل أن نموت دون أن نرى الرصاص يُصوَّب نحونا. قالت أمي بما يشبه الهمس:

– لا تنظروا إلى أي مكان، عيونكم في الأرض، امشوا بسرعة قدر الإمكان، وإذا سمعتم صوتاً يطلب إلينا أن نتوقف، توقفوا، لا تهربوا، فكل من يهرب يموت، وإذا قررنا الهرب فلنهرب معاً، في الاتجاه الذي أحدده أنا، لا تنسوا أن تتمسكوا بي أنتم الصغار. لا تتحدثوا، لا تصدروا أصواتاً بأقدامكم، فقط امشوا بسرعة.

فعلنا كما قالت، وصرت أراقب أصوات قدميّ وهما تلامسان الأرض، أحاول أن أخفف منها قدر الإمكان، أن أسير مثل قط، ينفخ لبادات قدميه قبل أن يطأ الأرض، وكنت أشد أصابع قدمي إلى أعلى وأمشي على لباداتها، لم أخبر أمي بما أفعله، لكني اعتقدت أني نجحت في ذلك. لاحظت أن بنطالي يصدر بعض الصوت ورجليه تتلامسان، باعدت بين قدمي، وسرت بخفة ورشاقة وخوف. امتنعنا عن إصدار أي صوت، ولم نستطع منع صوت الحمار، وهو يدب على الأرض، أو وهو ينفخ نفخته المعروفة بين وقت وآخر، تمنينا على الله أن لا يرى حمارة فينهق ويركض نحوها، فلا نحن نستطيع منعه، ولا الجيش يستطيع منعه. حاولنا أن نداري الحمار، لم نضع فوقه حملاً ثقيلاً، وتجنبنا أن نركبه، وجعلنا نمسد بأيدينا على رأسه ورقبته علّه يظل مطيعاً. لو سألونا لقلنا: لم نصدر صوتاً، لم نزعج أحداً، الحمار هو

الذي فعل ذلك. لكن، ماذا نقول لو كنا نحن المطلوبين لا الحمار؟! وماذا نقول، لو سألونا عن صاحب الحمار! أنستطيع أن ننكر ذلك؟! فلو تركوا الحمار يمشي وحده سيدلهم على بيتنا، الحمار يعرف طريقه جيداً، فإذا وضعنا «الكلنات» فوقه، يتوجه إلى نبع الماء مباشرة، ويعود إلى البيت كما لو كنا نقوده إليه، حتى أنني كنت أنام في الطريق على ظهره، لأجد نفسي في ساحة البيت. قلت في نفسي: الجنود ليسوا أغبياء، فإذا كانوا يودون قتلنا سيفعلون ذلك. دعوت الله في سري: يا رب احمنا من الجنود. يا رب استر حالنا. وتلوت «وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً، فأغشيناهم، فهم لا يبصرون». لاحظ الحمار بقايا روث حمير مثله، راح يقترب منها، يمد رأسه نحوها، ويشمها، يكشر عن أسنانه، ثم يرفع رأسه نحو السماء. ينتقل إلى أخرى ويكرر حركاته. يحاول أن ينهق، ونحن نلكزه بأيدينا علّ النهيق يطير مع شهيق الهواء كلما رفع رأسه. توقف أكثر من مرة عند روث فصيلته، واستطعنا منعه كلما حاول أن ينادي. كنت أتطلع نحو الأرض مانعاً نفسي أن أرى جندياً لو كان في مكان ما، لاحظت أن روث الحمير كثير، وإذا ما تابع حمارنا عادته فلا بد أننا سنسمع نهيقه.

تمنيت لو كان الوقت غير هذا الوقت، والحال غير هذا الحال، وجمعنا كل هذا الروث، لأصبح عندنا ذخيرة «لزبل» الطابون، هذه ثروة ندوسها بأقدامنا اليوم، وتتحول مع الزمن إلى جزء من التراب، بينما كانت بالأمس محل خلاف ونزاع بين الأطفال، حتى أن بعضهم كان يحمل «قفة» ويضعها تحت مؤخرة الحمار أو البقرة لئلا يبذل جهداً آخر في جمعها عن الأرض. استسخفت نفسي وأنا أفكر في هذا الأمر، فنحن الآن نفكر فقط في أن نبقى أحياء، وإذا ما تغيرت الأمور تغيرت اهتماماتنا.

لم نكد نصل «سقيفتنا» حتى سمعنا صوت المدرعات وهي تقتحم القرية. كانت القوة كبيرة، نادوا بمكبرات الصوت أن التجول ممنوع، وكل من يخرقه يعاقب. كنا نراقبهم من بين صفائح «الزينكو» التي تشكل ما يشبه بوابة للدار. كان الناس على ما يبدو قليلين، فكثير منهم ما زالوا

يعيشون تحت أشجار الزيتون القريبة أو على عيون الماء البعيدة نسبياً. لم أحس بأن هناك جماعة نعيش بينها، فالكلاب استلقت في أقرب ظل، قرب جدار، أو تحت شجرة، ولم تقو على النباح في مثل هذا الجو الحار، فتحت أفواهها تماماً، ودلقت ألسنتها، وراحت تلهث بكل سرعة. كانت الحرارة شديدة حتى أنها تزيغ الإبصار، لا تستطيع أن ترى الأشياء أمامك بوضوح، كانت الصورة ترتج مع ارتجاج الهواء الساخن حولها، وكانت أصوات الصراصير والحشرات تسمع من كل جانب. هم ينادون أن التجول ممنوع، و «أبو زيد» يصدر أصواته المجنونة والمتواصلة. كنت أحتار بسبب هذه الأصوات التي تصدرها. ألا تتعب هذه الحشرات من صوتها؟! أهي تغني! أتنادي صغارها! إنها تفعل ذلك طيلة النهار. كنا نتعرف على مواقعها من خلال أصواتها، وإذا أحست بأننا أصبحنا قربها تصمت، وإذا أحست الخطر تطير. كنا نتحايل عليها، نحدد مواقعها على الشجرة، نقترب منها بخفة، وحين تصمت نتصرف وكأن أمرها لا يعنينا، حتى تعاود الغناء مرة أخرى، فنقبض عليها، يستخدمها بعضنا طعماً لاصطياد العصافير بالفخاخ، أو يقطعون أجنحتها، ويلقون بها في السهل، فتلاحظها العصافير، وتلتقطها هدية مجانية. قال لي «حامد» مرة:

– حشرات «أبو زيد» لا تغني، إنها تنادي بعضها بعضاً، مثلها مثل الحمير والكلاب والقطط والضفادع، الإناث ينادين الذكور، والذكور ينادون الإناث، والكبار تنادي الصغار.

سألت:

– ولكنها تنادي طيلة النهار، هل تقضي النهار كله وهي لا تجد بعضها بعضاً!

– هي تحس الأنس حين تصدر الأصوات، أما إذا شعرت بالخوف، فإنها تصمت، ألا تلاحظ ذلك!

– وكيف ينادي النمل بعضه؟ أود لو أعرف ذلك

– لا نسمع أصواتها، ربما تعرف الأشياء بحاسة الشم.

فكرت فيما قاله، لكنه لم يكن مقنعاً تماماً لي. كل الكائنات تنادي بعضها بعضاً، ونحن البشر ننادي بعضنا أحياناً، لكنّا نود أحياناً أخرى أن نقضي الوقت وحدنا. نود أن نخلو بأنفسنا، نفكر في هذه الدنيا، نود أن نبكي وحدنا دون أن يرانا أحد، نغطي وجوهنا ونحن نبكي فنواري قسماتها، ونتألم دون أن يشعر الآخرون أننا نتألم، لكنا نضحك حين نكون في جماعة، ونتحدث بهدوء أحياناً وبصوت مرتفع أحياناً أخرى. حاولت أن أقارن بين هذه المخلوقات والبشر، فوجدت أن هناك أشياء كثيرة مشتركة، وهناك أشياء أخرى مختلفة، نصرخ بأعلى صوتنا أحياناً، ونهمس في أحوال أخرى، ربما بصراخنا نزعج هذه الكائنات، وتود هي الأخرى أن ننادي بعضنا بعضاً همساً. وحين نخلو أحياناً بأنفسنا، نظن أن هذا العالم ملكنا نحن فقط، فيروح بعض منا يغني بأعلى صوته، ولا يقدر أن هناك من يعيش على هذه الأرض غيرنا. نحن نتعامل مع الأمور على أننا ملوك هذا الكون، وربما تفعل الكائنات الأخرى مثلنا. رغم ذلك نحن نخاف حتى من الكائنات الأخرى، فنهرب أو نلوذ بالصمت، نخاف الأفاعي، ونخاف الضباع وغيرها، وإذا ما أتيحت لنا الفرصة لقتلها فعلنا ذلك ونحن نشعر بالفخر، بل إننا نعتقد أن من يقتل سبع ضفادع بكف يده اليمين له أجر يوازي أجر الحاج، فالضفادع حاولت أن تفضح الرسول وهو يختبئ من الكفار في الغار. كيف تنظر هذه الكائنات إلينا؟! ربما هي تعتقد بنفس ما نعتقد به. يا الله كم هذه الدنيا معقدة، وعصية على الفهم. متى سأفهم كل ذلك؟ هل سنتعلمه في المدارس؟ أريد أن أدرك ما أنا فيه، وماذا تعني هذه الحياة، وماذا سأكون في هذه الدنيا. متى سيكون ذلك؟ ربما سأفهم ذلك حين أصبح في المرحلة الإعدادية، يعني مع بداية العام الدراسي القادم، وهل سيكون هناك عام دراسي قادم؟ هل سنرجع إلى المقاعد الدراسية بعد هذه الحرب؟ كيف ستختلف الدراسة بعد هذه الحرب؟ هل سيسمح لنا اليهود بالعودة إلى المدارس؟ ما قيمة التعليم في مثل هذه الظروف الجديدة؟ لماذا استبق الأمور؟ الآن نحن نريد أن نحافظ على حياتنا، فنحن مهددون بالموت.

تجمع عدد من الدبابات والجنود قرب المدفع، كانت معهم آلية كبيرة، صوروا الموقع من كل الجهات، وبدأت أعمالها لسحب المدفع. لم نستطع أن نراقب كل شيء، فالدورية الصغيرة تدور في كل أزقة القرية، وصوت ينادي من خلال مكبر الصوت: على كل واحد أن يبقى في بيته، وعلى كل من يحمل سلاحاً أن يسلمه إلى المختار خلال ساعتين من الآن، القرية مطوقة من كل الجهات، لا يحاول أي شخص الهرب، لو هرب أحد نطلق عليه النار. لف القرية صمت، كل بقي في بيته، أما الذين في القرية فلا يساوون ربع سكانها، فالناس في السهل وبين الأشجار، وإذا لاحظوا حركة الجنود فلن يدخلوها. الأماكن البعيدة أكثر أمناً، فلماذا يأتون؟! ثم إني لا أعتقد أن هناك سلاحاً في البلدة، لم أره معهم من قبل. كنت أسمع فقط أصوات «الخراطيش» التي تستعمل للصيد، هي ليست أدوات حرب، هل يجمعونها! كنت أسمع أحياناً أصوات طلقات نارية في الأعراس، لكني لا أعرف الذين يمتلكون مثلها. تنبهت إلى أني أملك لعبة مسدس، كان يشبه المسدس الحقيقي في شكله، لكنه لعبة. هل يجمعونها هي الأخرى! ودون أن أسأل أمي أو أبي، رحت أبحث عن مكان أخبئ فيه مسدسي. أنا لن أسلمه للمختار، سيضحكون عليّ لو فعلت ذلك. لكن، ربما شكوا في أنه مسدس حقيقي، فماذا سيفعلون لو رأوه قبل أن يعرفوا أنه مجرد لعبة! هل لهؤلاء الجنود أولاد مثلنا! ألا يلعبون! ألا يشترون ألعاباً ومسدسات على شكل ألعاب! ألا يستطيعون تمييز اللعبة من غيرها! تساءلت كثيراً. فكرت بأن ألقي به في «الحواكير» المجاورة، أرميه على سطح السقيفة. فكرت بأن أخبئه تحت حجر أو شجرة أو وعاء، لكني تراجعت في كل مرة. لونه الفضي اللامع يمكن أن يعكس أشعة الشمس على الجنود من أي مكان، والجنود سيفتشون كل شيء. أصبحت كل الأماكن بالنسبة لي مكشوفة، لو كنت مكانهم لاستطعت أن أرى الموقع الذي فيه المسدس. الغرف مكشوفة، وساحة الدار مكشوفة، وأسطح «السقائف» مكشوفة، والأماكن تحت الحجارة مكشوفة. آه، ماذا لو حفرت في الأرض، ودفنته؟ فعلت ذلك، لكني وجدت أن

لون التراب الذي غطيته به يختلف عن لون التراب المجاور. أصبح الأمر مكشوفاً. لا مكان أخبئ فيه مسدسي. اقتربت عربة الدورية من بيتنا والجندي ينادي:

– سلموا أسلحتكم، نحن نعرف كل الذين معهم سلاح، لا مجال لنكران ذلك، إذا لم تسلموها ستعاقبون.

قلت في نفسي: هم يعرفون أن في بيتنا مسدساً، وهم باقترابهم من بيتنا يقصدوننا نحن، يقصدونني أنا. كثير من الأولاد رأوا المسدس وأنا ألعب به. هم يعرفون أن أبي اشتراه لي يوم ذهب إلى مكة. يومها، حملته، ودرت به في كل القرية، كنت أتباهي أني أحمل مسدساً، فقليل مثلي يملكون واحداً مثله. صنعت له جراباً من قماش، وربطته حول وسطي، وصرت أتجول به في القرية، وإذا ما اقترب أحد مني، أصوب نحوه وأطلق طلقة منه. كان صوته بالضبط مثل صوت المسدس الحقيقي، وكان شكله بالضبط مثل المسدس الحقيقي، وكنت أحاول أن أكون أنا بالضبط مثل الجندي الحقيقي. بان الانزعاج عليّ، رآني أبي مرتبكاً، أدور من مكان إلى آخر دون هدف. سألني. أخبرته أن لا شيء. رحت عند الحمار، حاولت أن أضعه في السلسلة الحجرية التي تحجب الحمار عن الزقاق، وضعته وابتعدت قليلاً، وحين نظرت إليه وجدته واضح المعالم. رفعته من مكانه ووضعته تحت كيس التبن، وابتعدت، لكني وجدت أن أي جندي غبي سيكتشف ذلك. يا الله كم من الوقت يجب أن يمر قبل أن أجد مكاناً مناسباً له لا يستطيع أحد اكتشافه. شعرت بالعطش، فتحت جرة الزير الفخارية، وشربت. تطلعت في الزير، فظننته أكثر الأماكن أمناً. ركضت نحو إبريق الزيت، بللت قطعة قماش بالزيت، وزيتّه، وضعته في كيس بلاستيك، ثم ألقيته في الزير. تمشيت قليلاً في الساحة، تمشيت كأنني جندي يبحث عن سلاح، فتحت الزير، فإذا المسدس يرقد في قاعه. حاولت أن أنتشله وأبحث عن مكان آخر، مددت يدي في الزير فلم أطله، رحت أبحث عن سلك أو أية أداة لالتقاطه، فإذا الجنود يقتحمون علينا بوابة الدار، كانت من الخشب ولوحين من الزينكو،

فسهل عليهم فتحها. ابتعدت عن الزير بأقصى سرعة ممكنة، وقفت في الجهة المقابلة، وقفت قرب أمي وأبي وإخواني. إذا وجدوه سأقول لهم إن هذه لعبة، أو سأقول لهم خذوه، لكن لا تأخذوني أو تأخذوا أبي أو أي فرد من أفراد أسرتنا. صادروه، هذا مسدس ألعب به، إنه مجرد لعبة، أليس عندكم بقالات تبيع مثل هذه! أليس لكم أولاد في مثل سني يلعبون؟! أنا لعبت بهذا المسدس، وهناك ألعاب أخرى نلعبها، نحن أطفال، إذا كنتم لا تصدقون، فاذهبوا إلى أية بقالة في المدينة، في «رام الله»، وستجدون ألعاباً مثل لعبتي. فتشوا البيت جيداً، قلبوا الفراش، فتشوا بين تنكات الزيت والزيتون، فتشوا أكياس الطحين، دخلوا المكان الذي نربط فيه الحمار، فنهق، ابتعدوا عنه، أما الكلب فأقعى في زاوية من البيت دون أن ينبح، ووقفت القطة فوق الجدار متهيئة للهرب في أي وقت تشعر فيه بالخطر. شعرت بأن الوقت الذي مر كان طويلاً، شعرت بالخوف كلما اقتربوا من الزير. كنت أحاول إيجاد الإجابة المناسبة إذا ما وجدوه، فالوحيد الذي يعرف ما في الزير هو أنا. لو سألوا أبي لا يعرف. لو سألوا أي فرد من أسرتنا لا يعرف، أنا الوحيد الذي يعرف، هو سري أنا. دعوت الله أن يعمي عيونهم، دعوت الله أن يحمينا من شرهم. اقترب الضابط من أبي وسأله:

– أين سلاحك؟

قال بصوت هادئ:

– ليس عندنا سلاح.

– من الذين يحملون سلاحاً في القرية؟

– لا أعرف، أنا مجرد زائر، ولا أعرف كل الناس.

– ومن أين أنت إذن؟

– من «بيت نبالا».

هز الجندي رأسه، وقال:

– يعني أنت من قضاء «اللد»!

– نعم، أنا لست من هنا، أنا من هناك.

وأشار ناحية الغرب.

سأله محاولاً أن يكون لطيفاً:

– لماذا لم تعمر بيتاً لك يا حاج؟

قال بثقة ولكن بهدوء:

– أملت أن أعود إلى بيتي ورزقي، فحجارة بيتي الجديد والحصمة جاهزة هناك.

– ماذا تقصد ب «هناك»؟

– في قريتنا، بجانب التينة «السمارية».

– وأين هي التينة «السمارية»؟

– بجانب بئر الخيل.

– وأين هو بئر الخيل؟

– في طرف الحارة الشامية.

– وأين هي « الحارة الشامية»؟

– تبعد عن بئر البلد خمسمائة متر.

– وأين هو بئر البلد؟

– بعد «جسر أبو بابين» بكم متر.

– وهل هناك جسر ببابين؟

– وهناك على مبعدة منه جسر بثلاثة أبواب.

شعر الجندي بالضيق من الإجابات المتسلسلة، وبالأسئلة التي يوجهها دون نهاية، فقال محاولاً إنهاء الحديث:

– وهل تعتقد أن البئر فيه ماء؟

– أظن ذلك، فمنه سأجبل المجبولية، وأبني البيت.

– هل أنت متأكد من ذلك، أم أنك تحلم؟

– مثلما أراك الآن أمامي.

صمت قليلاً ثم قال بصوت هادئ:

– ربما أكون أحلم. لا أدري.

دقق الجندي النظر فيه، تطلع في المكان، هز رأسه يميناً وشمالاً، وأمر جنوده بالخروج.

شعرت بالارتياح حين خرجوا، كنا نسمع أصوات الآليات بوضوح، كانت تحاول تعديل المدفع وجره، بل هكذا علمنا فيما بعد. كانت الأصوات عالية جداً. عرفنا فيما بعد أن أهالي القرى الأخرى كانوا يسمعون الأصوات في «بيت اللو». لاحظت أن أبي وأمي يتهامسان، اقتربت منهما لأعرف أي أمر يتحدثون فيه، فلماذا يخبئ الكبار الأخبار المهمة عنا كما فعلوا مع الرأس القرص! بدا لي أن الأمر الذي يتحدثون فيه جدي للغاية، ويحمل كل منهما وجهة نظر مختلفة وكأنهما على وشك العراك. اقتربت أكثر وكأني أفكر في أمر الجنود الذين تركوا البيت قبل قليل، وكأني مشغول بما يحدث في الخارج. سمعت أبي يقول: سنزوج عليا غداً، الوقت لا يحتمل أن نبقيها عندنا. فكرت في ما يقوله، هكذا سيزوجها غداً، كيف يكون ذلك! نعم، عرفت أكثر من عشر فتيات تزوجن خلال اليومين الماضيين، كل ما في الأمر أن تنتقل الفتاة من هذا البيت إلى البيت الذي يجاوره أو الذي يبعد عنه قليلاً، خشي الناس أن يغتصب اليهود بناتهم، ولهذا أسرعوا بإتمام العقود، ولهذا السبب لبست «عليا» ثوب أمي حتى تبدو أنها أكبر من فتاة. قالت أمي بإصرار: لن نزوجها قبل أن نعرف إلى أين نحن ذاهبون.

خمدت الأصوات قليلاً، فإذا صوت صياح على مقبرة القرية. حاولنا استراق النظر، لكن والدي زجرنا، خاف أن يرانا الجنود، فيطلقوا النار تجاهنا. اختبأنا ثانية، وصوت الصراخ يعلو. قال الجيران القريبون من الموقع: إنهم يعذبون المختار، خلعوا كل ملابسه، ويدورون به بين القبور. إنهم يضربونه بكل قوة، يضعون السلاح في رأسه، وفي ظهره. إنهم يضربونه بأيديهم وبأرجلهم، إنهم يبطحونه أرضاً على الأشواك. المختار يصيح بأعلى صوته، ويطلب إلى الله أن ينقذه، المختار يتمسك بشواهد القبور فيقف، ثم يقع ثانية بينها. المختار يصرخ أنه لم ير «مفتاح المدفع» ولا يعرف مكانه. يقسم بالله أنه لا يعرف ما يسمى «مفتاح مدفع»، يقسم بأولاده وبأمه أن هذا

الاسم عرفه منهم الآن. يقسم أنه لا يعرف أين ذهب الجنود الذين بقوا في قيد الحياة. يقسم أنه لا يعرف أين هو سلاحهم. يقسم أنه لم ير واحداً منهم بعد احتراق الدبابة. الجنود لا يزالون يعذبونه، يعصبون عينيه بقطعة قماش، ويضربونه، وهو لا يعرف أين يذهب، «يتعرقل» بشواهد القبور القليلة الارتفاع، وبحوافها، وبالجدران الطويلة منها، يقع أرضاً، ثم ينهض. الدم يسيل من رأسه، ومن يديه المربوطتين وراء ظهره، ويحاول النهوض بعد كل مرة يقع فيها. المختار ينادي على زوجته بأعلى صوته: خذي مصاري واذهبي الآن إلى كل القرى المجاورة، ابحثي عن مسدس واشتري واحداً حتى أخلص من هذه المصيبة. ثم يصيح: والله لا أملك مسدساً، خذوا مصاري واشتروا واحداً، وقولوا إنكم وجدتموه عند المختار. فتشوا بيتي ثانية، لن تجدوا فيه سلاحاً. ضعوني في السجن كما تريدون، لكن لا تقتلوني، والله لا أملك مسدساً ولا أعرف «مفتاح المدفع».

لم نكن نرى شيئاً، فما يحدث على المقبرة، ينتقل خبراً من واحد إلى آخر. تخيلت كل الذي سمعته من الجيران ونحن نقف خلف أسوار «سقائفنا». هل يمكن أن يحدث كل ذلك للمختار! هذا المختار الذي كان يصعد هو وأقاربه الشارع، بثيابهم النظيفة، ومشيتهم المعهودة، كانت لهم مشية خاصة، حتى أننا كنا نقلدها، كانوا يسيرون ورؤوسهم مرفوعة، ويلوحون بأيديهم عكس ما يتم تعليمه في المشية العسكرية، كانوا يقدمون أياديهم اليمنى كلما تقدمت أقدامهم اليمنى، وهكذا اليسرى مع اليسرى. وكنا نتحدث مثلهم، نحاول تقليد لهجتهم الخاصة أيضاً، نفخّم الأحرف فتصبح الكلمات أكثر ثقة بمعانيها، لكننا لم نستطع أن نغير من لون وجوهنا السمراء لتصبح بيضاء مثلهم. كانوا يسيرون في جماعة، يتوسطهم المختار الذي يعذبونه الآن. هل يمكن لهذه المعالم اللطيفة أن تتعرض للتعذيب؟ فهو لم يعمل بالمعنى الذي نعرفه نحن. هو يملك الكثير من الأراضي والأشجار والبساتين والينابيع، يعني هو «ابن نعمة»، لكنه لم يعمل فيها بيده، يقوم بتأجيرها إلى الكثيرين مثلنا، ندفع له حصة من خير رزقه. كنا نراه كل يوم تقريباً وهو

يذهب إلى «رام الله» في الصباح، ويعود عصراً، إذا لم نر المختار فمعناه أن هناك نقصاً في القرية. ماذا نفعل الآن؟! لماذا يفعلون ذلك مع المختار الذي أحبه الناس؟! هل يريدون إهانتنا جميعاً؟!

أخذ الجنود المختار عند موقع المدفع، أخبرنا الناس الذين يستطيعون تمييز ما يحدث هناك أنهم بالتأكيد يحققون معه. منع التجول لا يزال مفروضاً على القرية. حاول بعضهم الهرب، لكن الجنود كانوا حول القرية، كانوا يطوقونها، ويطلقون بعض الطلقات في المحيط. لم نسمع أن أحداً جرح، لكن إطلاق الرصاص ظل مستمراً. اقترب وقت العصر، والحال لا يزال كما هو، الجنود يفتشون كل البيوت، والمختار محتجز عند «الكوربة». جاءت عربة غريبة الشكل، مغطاة من كل النواحي، لا نستطيع معرفة ما فيها. اقتربت من «علية» المختار، وراح الجنود يعملون هناك. لا نعرف ماذا يحدث هناك، شككنا أنهم جاءوا يفتشون مرة أخرى، يفتشون في «الحيطان»، وتحت الجدران، وبين المقبرة. طلبوا إلى الناس بمكبرات الصوت أن يفتحوا شبابيك غرفهم وأبوابها وأن يذهبوا بعيداً عن القرية. لم يصدق الناس ما يطلبون، فربما يريدون تفتيش البيوت وهي فارغة من سكانها، ربما يريدون قتل الناس وهم يهربون خارج بيوتهم، ربما سيرتكبون مذابح كما فعلوا قبل عشرين عاماً، لكن الناس هربوا تحت أشجار الزيتون، وأصبحوا خارج الطوق. حملت النساء الأطفال في أحضانهن وهربن، وحملن الذهب الذي يمتلكنه وهربن، ودفن الرجال اللاجئون «قواشين» أراضيهم في أماكن آمنة، وحملوا نقودهم وهربوا، وحمل الأطفال بعض الأكل وهربوا. الجميع هرب، أصبحوا بين الأشجار، وصلوا إلى مسافة بعيدة، منهم من وصل إلى القرى الأخرى، لكن معظمهم آثروا أن يبقوا بين الجبال وفي الأودية.

حالة ذعر لم أرها من قبل، ها هم اليهود بيننا، إن لهم أشكالنا نفسها، وإن كانت ألوان بشرتهم مختلفة، ليس لهم ذيول، ولهم عضلات مثل عضلاتنا بل أكبر، لكنهم يتكلمون غير لغتنا. يستطيعون السير والركض والكلام. قاماتهم مثل قاماتنا، لكنهم وحوش في تصرفاتهم، فهم عذبوا المختار وحققوا

معه، وهم الآن يطوقون كل القرية وخاصة بيت المختار، ويطردوننا خارج القرية، شككت فيما تفوه به «حامد» يوماً، قال: لو كانت المعركة «مباطحة» تكون النتيجة أفضل، فنحن متمرسون فيها، هذه لعبتنا، ألا ترى أننا نمارس هذه اللعبة منذ صغرنا! هم يملكون سلاحاً، لكنهم ليسوا بنفس قوتنا الجسدية. ما رأيته اليوم يدل على امتلاكهم عضلات مثل عضلاتنا وأكثر، ولهم قدرة حتى في «المباطحة». يبدو أنهم أقوى من «الثور» الذي لم يتغلب عليّ ونحن عائدون من المدرسة، لو كان الأمر غير ذلك لقام المختار «ببطحهم» واحداً تلو الآخر قبل أن يقتربوا منه، فالمختار طويل القامة عريض المنكبين، يتغذى جيداً، ويتجول كل يوم في السهول والجبال لتفقد رزقه.

هرب الناس ولحقت بهم دجاجاتهم وكلابهم وقططهم وحميرهم، إنهم في البرية. «أيدمرون البيوت كما فعلوا في قريتنا الأصلية؟!» تساءل والدي. «أيشردون الناس مرة أخرى كما فعلوا بنا قبل عشرين عاماً؟!». «أيغتصبون الصبايا؟!». «أيلقون بنا وراء الجسر؟!». جلس الناس تحت الأشجار دون إحداث صوت، محاولين أن يتعرفوا على ما يحدث من أثر الصوت الذي يحدثه الجنود. جلست زوجة المختار، وهي تحاول أن تجفف دموعها. كانت «منخلعة» تماماً مما حدث لزوجها، وكان الناس «منخلعين» من أجسادهم، فتعذيب المختار أمام الناس هو تعذيب لكل أبناء القرية، وإذلاله بهذه الصورة هو إذلال للناس جميعاً. هم قصدوا ذلك، لم يختاروه صدفة. أقسمت زوجته أنهم لا يملكون سلاحاً، وإن المسدس الذي أطلقوا منه النار فرحاً بزواج ابنها قبل سنتين استعاروه من مختار قرية أخرى. جلست تحت الشجرة، وبدأت تعفر التراب على رأسها وكل جسدها. بكت بحرقة لكن بصمت. جلست النساء قربها يواسينها.

سمعنا صوت طائرة تقترب، اقتربت أكثر، كان ارتفاعها عن القرية قليلاً. دارت حول مباني القرية وحول حقولها القريبة. كانت الطائرة صغيرة، قال الناس من حولي إن نوعها «استكشاف»، تكشف ما تحتها بدقة متناهية، يستطيع طاقم الطائرة أن يرى ماذا يفعل الناس في بيوتهم، ويستطيعون أن

يروا القطة وهي تنام تحت شجرة، والدواجن وهي تلتقط الحب من السهول. ظلت الطائرة تدور، وتقلل من ارتفاعها، كلما اقتربت منا انخفضت أكثر، حتى كدنا نرى من فيها. كانا جنديين، كنا نرى رأسيهما. دققنا النظر فيهما. لا تكاد الطائرة تبتعد عنا إلا وأصبحت فوق رؤوسنا، التصقنا بجذوع الأشجار علّهما لا يريانا، ولا أظن أننا نجحنا، خشينا أن يطلقا الرصاص نحونا، فتسلق بعضنا الأشجار كي يختبئوا بين أغصانها، ولا أظن أنهم نجحوا. كنا مكشوفين لهما تماماً. أمسك بعضنا بالآخرين، ورحنا ندور حول جذوع أشجار الزيتون العريضة، كنا نحاول أن نكون في الجهة الأخرى من موقع الطائرة. فعلنا ذلك بسرعة، بسرعة الطائرة وهي تحاول أن ترصدنا، ما الذي تريد أن ترصده فينا؟! لم نعد نعرف ماذا يحدث حول بيت المختار وفيه. كان أمر الطائرة هو الذي يشغلنا. طالت الفترة وهي تدور حول القرية، وتعبنا ونحن ندور حول جذوع أشجار الزيتون، كنا أشبه بقطار، تجر العربات الأمامية الخلفية منها. الأطفال أدركوا أن الخطر قادم، بل هو قائم. لا مجال للانتقال من شجرة إلى أخرى أكثر أمناً، لم تعد هناك شجرة آمنة، ولم يعد هناك أي مكان آمن. صوتها قليل في شدته، لكنه مزعج وهي تحلق على هذا الارتفاع المنخفض، نحاول أن نسد آذاننا كيلا نسمعه، ونحاول أن نهرب، فنضطر لسماع هذا الصوت المخيف.

ما أصعب الشعور بالخوف من شيء لا تعرفه بالضبط! نضع كل الاحتمالات، ونظل ننتقل بينها دون أن نرسو على واحد منها. هبطت قلوبنا إلى أقصى درجة، وحبسنا أنفاسنا، والجو حار، ونسمات الهواء انقطعت، لم يعد لها وجود. يا الله، نريد أن تنفس، يا الله، نريد أن نستريح من هذا العذاب، يا الله، نريد أن نعرف ما هو مصيرنا، إن كان القتل، فليحدث الآن. إن كان السجن، فليسجنونا. إن كان تدمير القرية، فليفعلوا، ليعلنوا ذلك، ويفعلوه. نحن لا نعرف شيئاً، نحن لا نعرف سوى أن هناك خطراً، ما هو الخطر! الله أعلم. لم تهدأ الطائرة في دورانها، تعبنا من دورانها حولنا، وتعبنا من دورانا حول جذوع الأشجار، استسلمنا لما يحدث، جلسنا تحت

ظل الشجرة، فهم يعرفون أننا هنا، ولا يفيد كثيراً كل ما نفعله. رحنا نراقب اللذين داخلها، ندقق النظر فيهما، وهما يفعلان الشيء نفسه، كأن كل طرف يريد أن يتعرف على الطرف الآخر. اعتقد بعض الصبية أن بإمكانهم أن يصيبوا الطائرة بحجر، قبضوا على الحجارة، وراحوا ينتظرون عودتها. صرخ فيهم كبار السن أن لا يفعلوا. ظلت الطائرة تدور، تغير موقع ظل الشجرة وهي تدور، وصار الناس أقل مبالاة بأمرها، يتفرجون عليها كما يتفرجون على أي شيء جديد يودون التعرف عليه، فإذا هي تلقي بأوراق فوق رؤوسنا. دارت حول القرية، وحول الحقول، وألقت مناشير، هكذا سماها كبار السن. ركضنا نحو الأوراق، وأمهاتنا يصرخن فينا أن لا نلتقط شيئاً مما يلقونه، لكنا عرفنا أن هذه مجرد أوراق. أمسك شاب المنشور وقرأه بصوت عالٍ، وقال إنهم يعلنون أن الاحتلال قد تم، ويطالبوننا بأن يسلم كل منا سلاحه، وأن نرفع الرايات البيض فوق بيوتنا، وأن نتابع أوامر القادة العسكريين ولا نخالفها.

فجأة، سمعنا صوت انفجار عنيف، هز كل القرية، وطارت معه صفائح «الزينكو» التي تغطي «سقائف» اللاجئين، وطارت حجارة كبيرة في الجو، وانتشر الغبار في المكان، وغطى أماكن أخرى. كان التفجير متسلسلاً، لم يحدث مرة واحدة، كان انفجاراً يتلوه انفجار وهكذا. لا أستطيع تقدير عددها، لكنها كانت مخيفة. صاح الناس وهم يهربون، هربوا في الجهة الغربية من القرية، هربوا بكل سرعة، ولحق بهم أولادهم، ولحقت بهم حيواناتهم، هربوا حتى أصبحوا بعيدين، ومن هناك رأوا أن الانفجار قد أتى على «علية» المختار. كانت أجزاؤها قد تناثرت في الجهات كلها، الحجارة طارت فوق البيوت المجاورة، حتى تشقق بعضها، والأبواب والشبابيك طارت إلى أماكن بعيدة، رأيت إطار نافذة يطير مثل الطائرة بعد أن اختفت بعيداً عن المكان، حط جزء من الإطار في مكان أبعد من الموقع الذي نحن فيه، لم نجرؤ على الاقتراب منه، حذرنا الأهل أن لا نفعل، وأطعناهم.

«علية» المختار راحت، أصبح مكانها فارغاً، أصبح فضاءً بين أشجار

السرو المحيطة به. لم يعد هناك مبنى يطل على الشارع الرئيسي ويطل على المقبرة. كل شيء اختفى مع هذه الانفجارات، المبني العالي الوحيد في القرية اختفى، المبنى الذي يعلو قمة أعلى جبل في القرية راح، المبنى الوحيد ذو الطبقات الأربع لم يعد مكانه، جبل «بابون» الآن سيكون بلا طربوش، خلعه اليهود، ومزقوه، وبعثروه في الطرق وعلى المباني المجاورة، لن يتم استقبال أي مسؤول بعد اليوم فيه، لن تقام الأفراح فيه، لن يعقد أي صلح بين العائلات المختلفة على شرفته. كان مبنى وأصبح لا شيء، قام من التراب وإلى التراب عاد، لن تقام فيه المهرجانات في الصيف، ولن تجد خيول المختار مأوى لها هناك، ولن تجد العائلات الضالة مكاناً تنام فيه ريثما تستقر. ضاع شعار القرية، ضاع علمها، ضاع أحد أهم معالمها، ضاعت علامتها. اليوم «بيت اللو» دون شعار، ودون معلم، ودون مختار يلمها. كيف يمكن لِ «بيت اللو» أن تعيد مجدها! كيف يمكن لهم أن يبنوا «العلية» من جديد! كيف يمكن للمختار أن يرجع كما كان!

كان بيت المختار عالياً، مكوناً من ثلاث طبقات، تراه وأنت في القرى المجاورة، بل شكل لنا منارة نراه ونحن في السهول والجبال المجاورة للقرية، ترتكز أطرافه على أربعة أقواس في كل جهة، وأربع ركب، والركبة هي قوس أصغر حجماً من الأقواس الأخرى، كل منها في زاوية من زوايا المبنى، بينها يكون قاع البيت حيث يتم خزن المؤونة من حبوب وزيت وزيتون وبصل وثوم وغيرها، كما استخدمه المختار كزريبة تؤوي الخيل والحمير. أما الطابق الثاني فكان مكوناً من غرف النوم، وحين نطرق البوابة الخارجية من جهة الشرق التي تتوسطها «خوخة» باليد الحديدية فوقها، فإن أهالي المختار يطلون علينا من الطابق الثاني. أما الطابق الثالث فهو مجموعة من الغرف القليلة تطل على ساحة يتجمع فيها أهالي القرية في المناسبات المختلفة. كان الناس يصعدون إلى الطابق الثالث عن طريق الدرج الذي هو جزء من «المالة» الخارجية الجنوبية للحائط، فتماسك معها، وحتى لا يقع الصاعد أو النازل، وضعت تنكات مملوءة بالتراب، وزرع فيها القرنفل

والحبق والفلفل. يحيط بالبيت سور من الجهة الشرقية، وينحني قليلاً إلى الغرب كلما نزلنا الشارع المؤدي إلى الطريق العام، أما البستان في الجهة الغربية الذي يحوي أشجار اللوز والسرو والتين والتوت، فمسور هو الأخر بنباتات الصبر، وبمجموعة من قبور أهالي المختار. هذه القبور تشكل مانعاً لدخول الناس إلى البستان، فلا تملك وأنت تمر من أمامها إلا أن تقرأ الفاتحة، وهي بمبانيها الضخمة الأنيقة تجعلك أكثر أناقة وأنت تمر بجانبها. بيت المختار هذا انهار، هدّه اليهود في الأيام الأولى للاحتلال.

تطلع الناس في وجوه بعضهم بعضاً، وقد بدأوا يخففون من سرعة هروبهم. توقفت زوجة المختار وقد رأت أجزاء بيتها تتوزع على كل أنحاء القرية من مبان وحقول، تطلعت إلى السماء وصاحت:

– وينك يا الله، تعال شوف اللي جرى، أأنت هنا فوقنا أو هناك فوق اليهود! أأنت معنا أو مع اليهود! ليل نهار ونحن نصلي لك، لماذا فعلت هذا لنا!

ركضت النسوة نحوها، عانقنها، غطين فمها بأيديهن لئلا تقول ما يغضب الله، وهن يقلن:

– تشاهدي، قولي: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. ألا يكفي ما نحن فيه!

هللن حولها، وطلبن إليها أن تهلل مثلهن، وهي تصيح وترفع يديها نحو السماء. ظللن قابضات على فمها، ورفعن أصواتهن وهن يوحدن الله، وهي ما تزال تتطلع بعينيها الدامعتين والغاضبتين نحو السماء.

قالت لها إحداهن: اتقي الله يا امرأة. ألم تسمعي بقصة سيدنا أيوب. كان من عباد الله الأتقياء، صبر بعد أن ابتلاه الله بالغنى والرخاء والصحة، فكان عبداً تقياً، وابتلاه بالنعمة بأخذ النعمة منه، فكان صابراً. لا تكوني مثل زوجة سيدنا أيوب التي طالبته بأن يجدف على الله حين قالت له: أما زلت متمسكاً بعد بكمالك؟ ألا تذكرين ماذا أجابها؟! قال: أنقبل الخير من الله ولا نقبل الشر؟! وأكمل: كم لبثت في الرخاء؟ قالت ثمانين. قال: كم لبثت في البلاء؟ قالت: سبع سنين . قال: أما أستحي أن أطلب من الله رفع بلائي

وما قضيت فيه مدة رخائي!! صبر أيوب، وعادت إليه عافيته، ففرحت زوجته، واصطفاه الله رسولاً، وعفا عن زوجته. اصبري يا أخت، واستغفري الله، وسيفرج الله عنك وعن زوجك كما فعل مع سيدنا أيوب الذي وجد ضالته في هذه المنطقة.

صاحت زوجة المختار: وهل سأصبر سبع سنين كما فعلت زوجة أيوب؟!

قالت: ربما أكثر. ربما سبعين سنة.

صاحت مرة أخرى، ورفعت يديها إلى السماء، فأسرعت النسوة وأغلقن فمها وهي تحاول الإفلات منهن.

توقف «عمي إبراهيم» قرب النساء، وقال لهن بلهجة حزينة:

– اتركنها تفعل ما تشاء، على الأقل تفش غلها في شيء لا تراه، إنها تعاتب الله ليس أكثر، هل تريدون لها الموت!

وقفت في العراء، لم يعد الاختباء بين الأشجار يعنيني، أحاول أن أفهم ما يحدث هنا، وما حدث لأهلي هناك. الأفكار تضاربت في مخيلتي، تصارعت كما لم تفعل من قبل، تصادمت، تحاول كل منها أن تطغى على الأخرى، أهز رأسي علني أتخلص منها، تأتيني من جديد، توجع رأسي، تطن في أذني، تؤلمني، وعيناي تحترقان دون دموع، أتألم كلما فتحتهما وكلما أغلقتهما، ونفسي يصبح أكثر هدوءاً، وأنا أبحث عن دور يمكن أن أقوم به أخفف عن كاهلي هذا الحمل الجديد الذي اقتحم حياتي. اقترب «حامد» مني وأنا على هذا الحال، وقال هامساً:

– قرأت مرة منشوراً يقولون فيه: ليس المهم أن تجد لك دوراً في هذه الحياة، فكل إنسان يقوم بدور ما.

نظرت في وجهه، وأنا أعيش التيه والحيرة، وسألته:

– وما هو المهم إذن؟

– المهم أن تختار دوراً تسعد فيه الآخرين.

– وأين تكون سعادتهم؟

– أنت الذي يحدد ذلك.

– هل يعني ذلك أن يستمتعوا في هذه الحياة؟

– ربما، ولكن كما جاء في المنشور، فإن كل من يعمل على إسعاد الآخرين يشعر بالمتعة.

– أين هم الذين وزعوا هذا المنشور؟ هل يمكن أن أتعرف إليهم وأرى المتعة التي يعيشون؟

– لا أعرفهم، ولكنهم بالتأكيد موجودون، وإلا من هو الذي ألقى المنشور في القرية! هل يمكن أن يكون قد سقط من السماء! ربما أحضره أحد أبناء القرية من «رام الله».

– هل يعني ذلك أن الذين يكتبون هذه المناشير موجودون في رام الله؟

– ربما، أنا لا أعرف.

تساءلت بيني وبين نفسي: لماذا نعيش في هذه القرية؟ إذا كنت أريد أن أفهم هذه الحياة، وأريد أن أحدد دوري فيها، لماذا لا نرحل إلى «رام الله»؟ تمنيت ذلك، عندها سألتحق بالمدارس هناك، وأحاول أن أتعرف إلى الناس هناك، وسأقرأ العديد من المناشير هناك، وأحاول أن أبحث عن السعادة لي وللآخرين. آه لو يقرر أبي أن نذهب هناك، فعمي يسكن هناك، وخالي يسكن هناك، والعديد العديد من أقاربي هناك، لماذا لا نعيش قربهم؟.

دققت النظر في الأرض، وأنا أفكر فيما يقوله «حامد»، والسعادة، والمتعة، والآخرين، وحسدتهم. فجأة فإذا سرب أسود اللون يسير أمامي، مثل أحد العربيدين اللذين لحقا بي عند رجم الحجارة، كان طويلاً، لكنه عريض عند وسطه. دققت النظر فيه، إنه ليس عربيداً، إنه يسير ببطء لا أعرفه في العربيد. كان نملاً، وكان النمل كثيراً، وكانت النملة تقترب من الأخرى حتى لا تستطيع تمييز أي واحدة منها بصورة كاملة، وكان يتجمع بشكل أكبر حول وسط السرب. هززت رأسي، وأمعنت النظر، فإذا نملة كبيرة، كانت بحجم الكف، كانت ثقيلة في حركتها، تزحف زحفاً، والنمل يسير من حولها، حتى أنه يحميها من كل الجهات، كان مثل الحرس، ولولا صياح النسوة من حول زوجة المختار، لسمعنا أصواتها. كانت مجرد نملة

كبيرة، لا تحمل على رأسها تاجاً، ولا تتمنطق سيفاً، ولا تحمل شارات. سلاحها هو ملاقطها في مقدمة رأسها التي لم أرها بوضوح. النمل كان يلتصق بها من كل الجهات بما في ذلك ظهرها. كانت تهرب هي الأخرى، ربما ظنت أن ما حدث هو زلزال، والزلزال يهز الأرض من الداخل، ويدمر البيوت من فوق الأرض ومن تحتها. اقتربت نحو شجرة زيتون، ودخلت في أحد المخابئ في جذعها، فعلت مثلما فعلنا عند مجيء الطائرة الاستكشافية. شعرت بالسعادة وأنا أرى الملكة لأول مرة، لكني تمنيت أن أراها في غير هذا الوقت. غابت النملة الملكة داخل الشجرة، وبقي الكثير من النمل خارجها يحرس المكان. جلست أرضاً، ولم أعد أشعر بأي ضوضاء من حولي، وتمنيت أن أظل هناك على هذا الحال إلى أن تخرج وأراها مرة أخرى.

الروايات المنشورة

1. الحاج إسماعيل، اتحاد الكتاب الفلسطينيين، القدس، 1990م
2. الحلم المسروق، دار الكاتب، القدس، 1992م
3. الصعود ثانية، دار الكاتب، القدس، 1994م
4. اليسيرة، اتحاد الكتاب الفلسطينيين، القدس، 1996م
5. شهاب، اتحاد الكتاب الفلسطينيين، القدس، 2001م